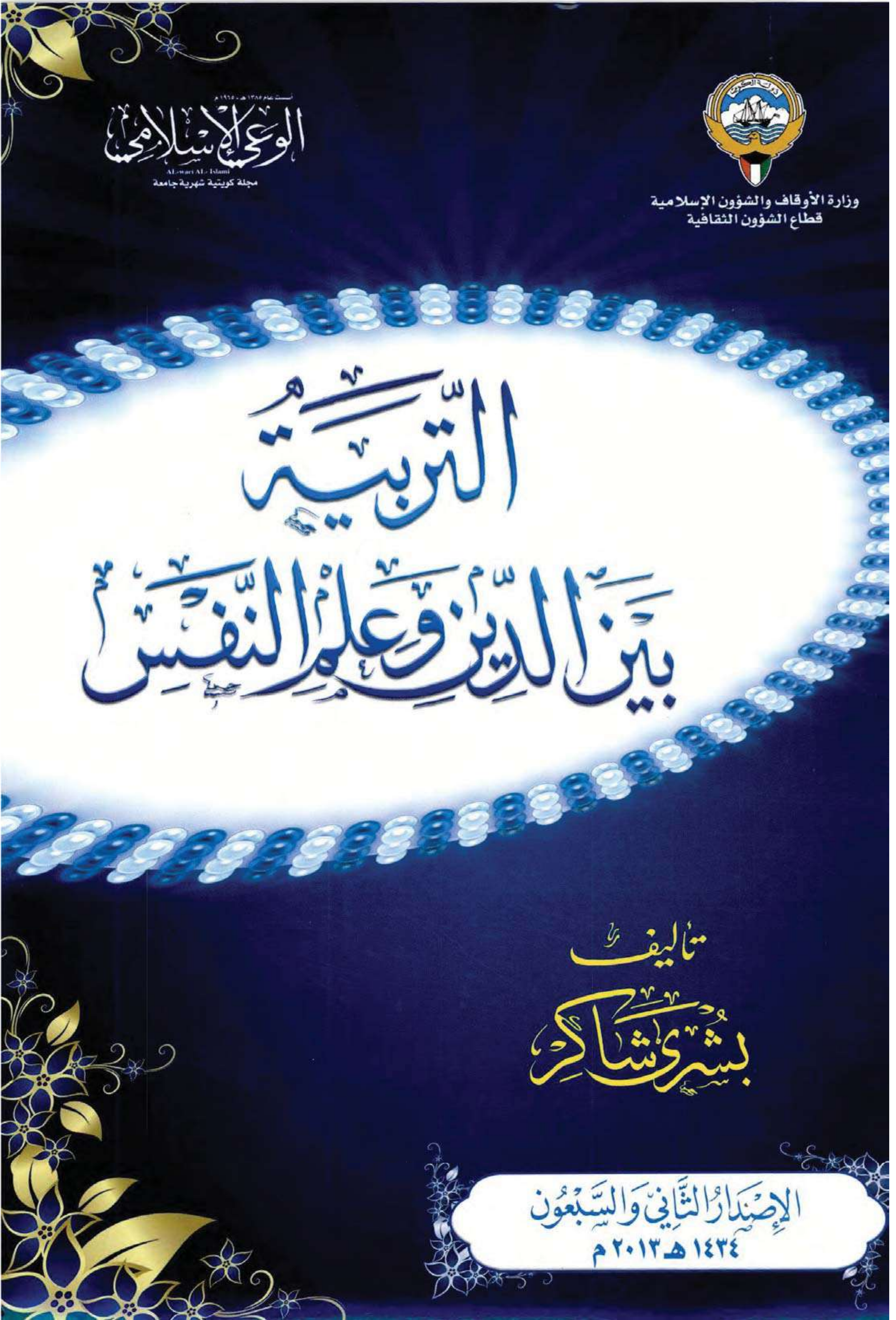


وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة
التربية
بين الدين وعلم النفس
تأليف
بشرى شاكر
الإصدار الثاني والسبعون
١٤٣٤هـ ٢٠١٣م


mohamed khatab

التربية
بين الدين وعلم النفس



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية



مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
دولة الكويت - في مطلع كل شهر هجري

الإصدار الثاني والسبعون

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

العنوان:
ص.ب ٢٣٦٦٧
الرمز البريدي ١٣٠٩٧ الكويت
هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الإلكتروني:
info@alwaei.com

الموقع الإلكتروني:
www.alwaei.com

الإشراف العام:
رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي





التربية بين الدين وعلم النفس

تأليف

بشرى شاكر

الإصدار الثاني والسبعون

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م


بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم: رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي

الحمد لله علّام الغيوب، المطّلع على أسرار القلوب، ذي العزة والكبرياء، والحلم والعلياء، مُسْبغ أصناف الآلاء، ودافع نوازل البلاء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعلم السر وأخفى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، الذي بصّر الله به من العمى، وأقام به معالم الهدى، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه أولي النهى.

أمّا بعد:

فإن العلم والثقافة الشرعية ميدانٌ خصبٌ لكل متعلم، إذا أراد أن يستزيد من الإحاطة بلغته، ودينه، ومبادئ أمّته.

وحتى ينتشر هذا الوعي ويعمّ، كان لابد من توفير المواد العلمية اللازمة له، ومن أهم تلك المواد: الكتب بمختلف أنواعها ومناهجها ومستوياتها، شريطة أن تكون نافعة بنّاءة جادّة.

ولأجل تواصل المثقفين شرقًا وغربًا، وتنامي الشعور بالانتماء، وتقوية أواصر الارتباط الثقافي بين شعوب الأمتين العربية والإسلامية، كانت فكرة الاجتهاد في إخراج الكنوز التراثية، وطباعة الرسائل العلمية،

أولويةً علمية في مجلّة «الوعي الإسلامي»، فهي بذلك تسعى لزرع الثقافة العربية الإسلامية، بشتّى صنوفها، في الناشئة والمبتدئين، وفي الصغار والكبار، على حدٍّ سواء.

وقد جَمعتْ مجلة «الوعي الإسلامي» طاقاتها وإمكاناتها العلمية والمادية لتحقيق هذا الهدف السامي، فتَيسَّر لها بفضل الله تعالى إخراج عدد ليس بالقليل من هذه الكتب والرسائل، وكان لها نصيبٌ وافَرٌ من الحفاوة والتكريم في كثير من المجتمعات داخل الكويت وخارجها، وذلك لما تميّزت به هذه الإصدارات من أصالةٍ وقوّةٍ ووضوحِ منهجٍ، ومراعاةٍ لمصلحة المثقف، وحاجته العلمية.

ومن هذه الإصدارات النافعة كتاب: «التربية بين الدين وعلم النفس» للأستاذة الباحثة بشرى شاكر حفظها الله تعالى ورعاها.

ومجلة «الوعي الإسلامي»: إذ تقدّم هذا الإصدار لقرّائها، فإنها تتوجه بخالص الشكر والتقدير للأخت الفاضلة على إذنها الكريم بطباعة الكتاب، نسأل الله لها التوفيق والسداد.

والحمد لله رب العالمين

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي



إهداء

إهداء خاص إلى روح والدتي الغالية زهرة وإلى أبي محمد شاكر وأختي منال شاكر...

إهداء إلى كل من سبقوني علما ونهلت من معرفتهم وإلى كل من لديه رغبة في أن يقوم الاعوجاج التربوي الذي يعاني منه أبناء أمة لو استقاموا لظلت خير أمة أخرجت للناس، تزهو بهم مثل ورود الربيع ولا تسقط أوراقها حتى وإن حل الخريف...

بشرى شاكر

مقدمة

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته» وفي رواية أخرى «والوالد عن ولده».

وهنا نرى أهمية التربية عند الله تعالى، الذي جعلها أمانة يسألنا عنها غدا يوم القيامة، ومن خلال هذا الكتاب سنحاول التعريف بمفهوم التربية ومشاكلها، وإيجاد أساليب تربوية سهلة وبسيطة وعميقة في نفس الوقت، آملين أن نصل إلى تكوين أجيال قوية وسليمة وفاعلة داخل مجتمعاتها، وذلك من خلال اعتماد مقاربة علمية نفسية، لكن دون إغفال دور الدين الذي يحدد مسارات الشخصية السوية المستقيمة، ولا يتناقض مع المستجدات العلمية الحديثة، كما يعتقد البعض، فيكفي أن الإسلام أول من تحدث عن جهاد النفس، لأنها أمارة بالسوء، وهي نفسها اللاوعي الذي يتحدث عنه علم النفس الحديث، إذ إن الفرد قد يرتكب أحيانا كثيرة أشياء هو غافل عن دواعيها، وهنا يلتقي علم النفس والدين، وتلتقي النفس واللاوعي...

قد تطرق قبلي الكثيرون للتربية النفسية للطفل، وأيضا حاول البعض فهم علاقتها بالدين من خلال بعض الأبحاث والدراسات، وقد يكمن الاختلاف من خلال ما سنقدمه هو ذلك المزج المتوازي، بين المنهج النفسي والديني، وأيضا في كيفية إيصال المفاهيم، إذ سأحاول إن شاء الله تعالى أن أبلغ للأسرة، ثم المدرسة بل لكل فرد مسلم هو مسئول عن النهوض بتربية رجالات ونساء الغد، حلولا سهلة وغير مبهمة، بأسلوب يمكنه أن يصل إلى فهم العامة، في محاولة لشرح المفاهيم العلمية بطريقة سلسلة ولينة لا يستعصي فهمها. فالهدف الأساسي من هذا المشروع البسيط هو محاولة إعادة بناء أسرنا على ركائز سليمة، وبأسلوب سهل مبسط دون تعقيد..

ولعل من بدايات اهتمام الإسلام بنفسية الطفل هو حث الرسول الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام على اختيار أحسن الأسماء لأبنائنا، حتى لا نخجلهم أو نحرجهم، ونحن نناديهم بها، أو يتعرضون بسببها للإساءة بالاستهزاء منهم، فحمل ذنب ذلك للوالدين، وأمرهما بحسن اختيار الاسم، وهو أول ما يحاور به الطفل داخل مجتمعه، كما أن الإسلام أوصى برحمة الأطفال، وحسن تربيتهم وكان لنا في رسول

الله ﷺ أسوة حسنة في ذلك أيضا، فهو من عرف برحمته ولينه وحسن معاملته للأطفال والمراهقين، فأحبوه واقتدوا به، ولعل هذا ما جعل زيد بن حارثة، يفضل أن يعيش مع النبي ﷺ على أن يعيش مع أمه.

ففي هذا الكتاب إذن، سوف نتحدث عن التربية من منظور علم النفس الحديث، وحينما نقول الحديث، فذلك نسبة لعمره مقارنة مع التربية النفسية التي تعلمناها من القرآن والسنة، والتي أسست لنا الطريق القويم نحو تربية سليمة، وجيل مبني على ركائز وثوابت صحية...

بشرى شاكر

كيفية التعامل مع الطفل الرضيع

غالبية الكتب والمقالات تتحدث عن كيفية التعامل مع الصحة الجسدية للطفل الرضيع، وتتناسى الجانب النفسي، إذ يبقى هذا الرضيع، مجرد شيء ولد حديثا لا ذات له، نعطيه ما نراه سينفعه ولا ننتظر أية إشارة منه تدل على ما يريده، وهذا خطأ شائع...

يولد الطفل الرضيع على الفطرة أولا، فهو يصرخ ويبكي حين خروجه من بطن أمه وهو ما يسمى في علم النفس بصدمة الميلاد «Birth Trauma»، إذ إن الجنين ينفصل فجأة عن جسد أمه، وينتقل من مكان مظلم دافئ، يمنحه القوت والدفء والحماية إلى وسط بارد جديد عليه، وكما قال عنها أوتو رانك[1] «صدمة الميلاد صدمة رهيبة في حياة الفرد، إذ إنها تحرمه من حياته الجنينية التي كان ينعم فيها بالدفء والأمان والسلام داخل رحم الأم ضمن وحدته مع

(١) هو اوتو روزينفيلد Otto Rosenfeld، ازداد يوم ٢٢ ابريل ١٨٨٤ في فيينا وغير اسمه إلى اوتو رانك Otto Rank بعد علاقته النزاعية مع والده، كان تلميذا وسكرتيرا لسيجموند فرويد قبل أن يقترح نظرية مختلفة لنظرية «أوديب» ويعوضها بما اسماه صدمة الميلاد ويتحدث عنه في كتابه صدمة الميلاد: Traumatisme de la naissance.

الأم، وتأتي الولادة لتقتلعه وتطرده خارج هذا الاتحاد بعيداً عن رحم الأم نحو عالم شديد الخطر وصاخب».

صدمة الميلاد هاته، تعيش داخل كل واحد فينا طوال العمر، وذلك كلما وجدنا أمام وضعية جديدة، كلقاء جديد مثلا أو انتقال من حياة العزوبية إلى الزواج أو من عمل إلى عمل آخر أو من مكان إلى غيره، إذ نلمس لدى الفرد تلك الحاجة للعودة إلى تلك الحياة الأصلية، أي الرغبة بالعودة إلى رحم الأم، حتى لو كان ذلك بطريقة رمزية فهو لا يبحث عن رحم أمه بقدر ما يبحث عن حماية وأمان...

هاته الصدمة هي بداية تعرف الطفل الذي كان جنينا على العالم المحيط به، وانتقاله من الفطرة إلى الرغبة في التكيف، ويقول بعض العلماء إنها رغبة في امتصاص قوة الصدمة الأولى لدى الطفل حديث الولادة، ولذلك نصح الإسلام بالأذان بصوت دافئ في أذن الطفل اليمنى، والإقامة في أذنه اليسرى، كوسيلة لتهدئته وإبلاغه أن هناك من يحميه دائما، وكذلك نصح بالرضاعة الطبيعية كما فعل ذلك الطب الحديث في هذه المرحلة العمرية الحديثة جدا والتي تدوم منذ الولادة إلى السنة ونصف أو السنتين، إذ ذكر القرآن الكريم

في سورة البقرة: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ... ﴾ وفي سورة الأحقاف: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ ﴾.

وهذا ليس فقط لأن لبن الأم يتوفر على مضادات حوية، ويساعد على تقوية جهاز المناعة لدى الطفل إلى ما ذلك من المنافع الصحية للجسم، وإنما أيضا لما في ذلك من انعكاسات ايجابية على نفسية الرضيع والتي تتجلى في تعويض انفصال الطفل المفاجئ عن طريق التلامس الجسدي بينه وبين أمه، وبالتالي تقوية الصلة والترابط بينه وبينها، وقد أسمت أخصائية علم نفس الطفل، الدكتورة «فرانسواز دولتو[1]» هذه المرحلة بمرحلة المرآة، أي أن الطفل يبدأ بتكوين صورة عن نفسه من خلال ما يراه من تفاعل والديه معه، وبالتعرف على صوتهما، ولذلك وجب على الآباء في هاته المرحلة العمرية، معرفة كيفية التعامل مع أطفالهم بحيث لا يجب التصرف معهم كمجرد «شيء»، بل يجب أن

---

(١) فرنسواز دولتو-١٩٠٨-١٩٨٨-، طبيبة أطفال ومحللة نفسية فرنسية، كرست اهتمامها للتحليل النفسي للطفولة.

يؤخذ بعين الاعتبار أن ذلك الرضيع هو كائن بذات خاصة مستعد للتكيف مع حياة خارجية جديدة.

ففي هذه الفترة الزمنية، يتأقلم الرضيع بفطرته مع جسم أمه، ويبحث عن ثديها ليشبع جوعه ورغبة منه في التكيف، لا يكتفي بذلك وإنما حينما يبدأ بفتح عينيه، فأول ما يفعله هو البحث عن عيني أمه لينظر إليهما، وهو يقوم بالرضاعة ويلتصق بها ويشم رائحتها، وهذا بحد ذاته إظهار لحاجته لها، لذلك نبه الكثير من الباحثين إلى سلبية قيام المرأة بإرضاع الطفل أمام جهاز التلفزيون وهي تتابع برنامجا مثلا، إذ إن هذا يجعل العلاقة التي بدأت تنمو بين الطفل والأم علاقة مشوشة، لأن هناك شيئاً ثالثاً يقف حاجزا بينهما وهو التلفزيون، فلا يستطيع الطفل التركيز على الرضاعة، لأنه يتبع نظر والدته التي توجه نظرها صوب شيء آخر، ويثبت علم النفس الحديث أن غالبية الأطفال الذين يصابون فيما بعد بمشاكل سلوكية ويجنحون نحو العنف في مرحلة الطفولة المبكرة يكون سببها بداية غير صحيحة بين علاقة الأم وطفلها الرضيع وتداخل شيء ثالث -غالبا ما يكون التلفاز أو حتى جهاز الحاسوب في عصرنا الحالي- بين هذه العلاقة الثنائية.

ومن الأشياء التي تجعلنا نتأكد من تمكن فهم الطفل الرضيع لما حوله بسرعة، هو صراخه عند رؤية بعض الأشخاص، وعدم رغبته في ملامستهم، وبالعكس الاستئناس لآخرين ومعرفة أمه من بين نساء أخريات، واعتماده على شم رائحتها، والتعرف على نظرتها التي ألفها حينما كانا يلتقيان في ملحمة الرضاعة...

كما أن الطفل أثناء الطفولة الأولى والتي تدوم من الولادة إلى الثلاث سنوات حسب علم النفس الحديث، يعبر عن تواصله مع مجتمعه عبر حركات رمزية، ولا يبدأ نشاطه الذهني إلا حينما ينطق أول الكلمات، وتبقى العلاقة بينه وبين أمه في هذه المرحلة حتى بعد الفطام وأول النطق وبداية حركاته كالرغبة في التقاط الأشياء، هي النموذج الذي يرسم من خلاله كيفية تعامله مع محيطه الخارجي.

وكخلاصة، يمكن أن نقول، إن هذه المرحلة العمرية، أي مرحلة المرآة والتي تعد مرحلة حسية حركية، وتندرج تحت مرحلة الطفولة الأولى، والتي يغفل عنها الكثير من الناس، تعد بداية تكوين النفسية المتوازنة للطفل، فالكثير منا يجهل أن رمزية الأشياء لدى هذا الطفل الصغير جدا هي ما تجعله يتذكر أشياء مرت به مثل لقطات مصورة

لا تفك رموزها إلا حينما يكبر، ولكنها تبقى عالقة في الذاكرة أكثر من أي وقت آخر حينما يكبر. لذلك يجب أن يعطي فيها الآباء للطفل أكبر قدر ممكن من الحنان، عكس ما شاع بين الناس من أن ذلك يؤدي إلى تدليل الطفل، ففي هذه المرحلة العمرية لا يتعلم الطفل أية مسؤولية بقدر ما يبني نفسيته. فوجب إذن تغيير سلوكنا اعتبارا لما جاء به الإسلام من نصائح تربوية وأقره علم النفس الحديث.

كيف ومتى نبدأ بتعليم أطفالنا

بعد السنة الثانية والتي تعد مرحلة المرآة، كما ذكرت أخصائية علم نفس الطفل «فرنسواز دولتو» ونهاية مرحلة الطفولة الأولى أي بعد السنة الثالثة، والتي تعد أهم مرحلة للتكوين النفسي للطفل، بحيث أن أهم ما نقوم به آنذاك هو التواجد الفعلي والعاطفي قرب الطفل دون أن نقوم بمحاولة تعليمه الخطأ من الصواب، لأنه يكون فقط في مرحلة اكتشاف الآخر، ولا يكون مؤهلا لفهم حدود مسؤوليته أو دوره في المجتمع الجديد بالنسبة له، لكن انطلاقا من سن الثالثة، يمكن البدء بتدريبه على بعض الأعمال، كوضع لعبة مثلا في مكان ما وحملها لإعطائها له، ونطلب منه فيما بعد إعادتها إلى مكانها، وبتكرير الفعل والطلب يعتاد هذا الطفل على هذا العمل، وبالتالي فهو يحس ببداية مسؤوليته انطلاقا من تكليفه بهذا العمل، والذي وإن كان بسيطا إلا أنه يعد بداية علاقته بالمسؤولية داخل المجتمع، الذي كان يخشاه قبل سن الثالثة، والذي يحاول الانضمام إليه كفرد بعد هذا السن، وإن كان هذا السن هو انطلاق تعليم الطفل المسؤولية، فإن ذلك يجب أن يكون بطريقة بسيطة ومرحة، لا تخلو من التودد، ولا تذهب للقسوة في

العقاب، ولا يجب فيها استعمال عبارات تنقص من قيمة الطفل، فذاكرة الطفل في هاته السن تكون أقوى وتستمر بداخله إلى أن يكبر، ومن منا لا يتذكر أشياء حدثت لم يتمكن من نسيانها في هذا العمر تحديدا؟

الأسلوب الصحيح الذي يؤتي أكله بطريقة جيدة والذي تعتمده المدارس الحديثة حاليا، هو الذي لا يخلو من مداعبة، ويعتمد التعليم بطريقة مرحة ممتعة، وهو ذات الأسلوب الذي كان ينتهجه رسولنا الكريم، عليه أفضل الصلوات والسلام مع الأطفال، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير ما فعل النغير»، والنغير تصغير لكلمة نغر وهو طائر كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا.

هكذا كان يعلمهم الصلاة بالفعل بعد تشويقهم بالكلمة الطيبة واللعب معهم دون أن يرغمهم عليها في هذا السن الصغير، وهم كانوا يقلدونه لثقتهم به وحبهم له، فأدركوا بعضا من الواجبات بطريقة محببة وبعيدة عن العنف.

وقد كان أيضا يلاعب حفيديه الحسن والحسين رضي الله عنهما

ويقبلهما، حتى إن الأقرع بن حابس رآه يقوم بذلك فقال، أتقبّلون أولادكم! والله إن لي عشرة من الأولاد ما قبلت أحدا منهم، فأجابه الرسول ﷺ بغضب: وما أملك لك إن نزعت الرحمة من قلبك؟!

الرحمة، هاته الكلمة هي التي تلخص طريقة التعامل مع الطفل في مثل سن التعلم هاته، وليست القسوة والضرب والشتائم، بهذا الشكل يمكنه أن يدرك أن له مسؤولية وأنه فرد من المجتمع والعكس يجعله ينفر أو يزداد حدة، ويتحول إلى طفل تحكمي أو «ديكتاتور»، «Tyrannical child».

كما أنه في مثل هاته السن يمكن تكليف الطفل بعمل بسيط لا يشق عليه، وعند نجاحه فيه نتودد إليه بهدية بسيطة كثناء على جهده بالفعل بدل القول، وقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به رسول الله ﷺ، فإذا أخذه قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا» ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر.

فالتعليم والتأديب ينطلق من الرحمة لا العنف، ونذكر أيضا من هديه ﷺ، أن الحسن بن علي رضي الله عنهما وهو بعد طفل صغير، امتدت يده إلى تمرة من تمر الصدقة، فأخذها منه ﷺ وقال له: «كخ،

كخ، ألا تعلم أننا لا نأكل من الصدقة؟».

من الطبيعي، ألا ننتظر من طفل صغير أن يعلم ما يعلمه الكبار، ولكنها طريقة لتعليمه دون توبيخه أو ضربه.

ولئن كان للتوبيخ الجسدي أثر جسيم على نفسية الطفل، إذ قد يجعل هذا الأخير يتذكر أثر العقاب أكثر مما يتذكر سببه، فللتوبيخ النفسي أثر أكبر بكثير في سنٍّ كما قلنا تقوى فيه الذاكرة ويتعلم الطفل وضعه في مجتمعه، بحيث أنه لا يجب أن نقابل خطأ الطفل بكلمات ناقدة من قبيل «غبي، أرعن، كسول إلى غير ذلك»، لأن مثل هاته العبارات الموبخة قد تصنع منه في المستقبل إنسانا فاشلا فعلا لأن هذا الانطباع بالفشل وبالغباء سوف ينمو بداخله فيخشى فيما بعد الاقتراب من أي شيء وإن كان بسيطا، خوفا من توبيخه أو الاستهزاء منه، وهكذا يقوم بالتخلي شيئا فشيئا، عن دوره داخل مجتمعه، وبالتالي يكبر وهو يعتمد على غيره ويخشى أية مسؤولية.

وما لا ينصح به أخصائيو علم النفس أيضا هو الكذب على الطفل أو غشه، أو الحديث بشيء والقيام بعكسه، بحيث إن ذاكرة الطفل تلتقط الفعل والقول معا وتقارن بينهما دون إدراك ذلك من قبل الآباء، فإما لا يقوم بما يطلب منه فيما بعد لعدم ثقته بهما، أو يقوم بعكسه تماما

دون أن يحس في أن في ذلك حرجاً ربما يكون ذلك إحساساً بصواب عمله، وهنا أيضا لدينا رواية عن نبينا الكريم ﷺ كدليل على صحة هذه الطريقة التربوية، ففي حديث عبدالله بن عامر رضي الله عنه، قال: «دعتني أمي ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أعطك» فقال لها ﷺ: «ما أردت أن تعطيه؟»

قالت «أعطيه تمرا»، فقال لها: «أما أنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة».

وعلينا أيضا أن نعامل الطفل في هاته المرحلة كإنسان كامل يفرح كما يمكنه أن يحزن فلا نستهتر بحزن الطفل إذا كسر لعبته مثلا، فالكثير من الآباء لا يلتفتون لمثل هاته الأشياء، ويرون فيها مجرد لعبة تهشمت، بينما الطفل يرى فيها شيئاً تعلق به وأحبه ويبكي فقده، فعوض أن ننهره يجب علينا تفهمه واحترام مشاعره ومواساته، وهذا ما قام به رسولنا ﷺ حينما فقد أبو عمير طائره الصغير، فقد مر به ورآه يبكي، وحينما سأله عن السبب، قال له الطفل «مات النغير يا رسول الله»، فظل ﷺ يداعبه ويحادثه ويلاعبه حتى ضحك، فمر الصحابة بهما فسألوا الرسول ﷺ عما أجلسه معه، فقال لهم «مات النغير، فجلست أواسي أبا عمير».

علّم طفلك باللعب معه

تزيد حركة الطفل بين سن الرابعة والسابعة من عمره، والعديد من الآباء يواجهون هاته الحركة الزائدة، إما بعدم الاكتراث، أو بتقييد حركة الأبناء لكونهم يشكلون مصدر إزعاج لهم ولضيوفهم في الكثير من الأحيان.

عدم الاكتراث يجعل الأطفال يكبرون بدون التمييز بين ما لهم وما عليهم، وبدون وعي بأية مسؤولية ولا إدراك لمعنى الحدود، أما تقييد حركتهم، قد تصيبهم بعقدة الاقتراب من الآخر والخجل المرضي، وقد يكون رد فعلهم عكسياً تماما، إذ يتحولون إلى أطفال «ديكتاتوريين»، يميلون للعنف كتمرد على سجنهم داخل طاقتهم الهائلة، التي تزداد بسبب نمو أجسامهم وبداية تكوين عضلاتهم في هاته المرحلة العمرية.

الطفل يجمع في سنه هذا، بين نمو عضلات جسده وتقوية جسمه، وبين انسجامه مع محيطه ذهنيا واجتماعيا، والوسيلة الوحيدة التي تجمع بين الحركية والتفكير هي اللعب، وهو الأسلوب الأنجع للتعامل مع أطفال هذا السن، ويؤكد العديد من علماء النفس هذا الأمر،

إذ يؤكد «كارل بيولر[1]» الألماني، أهمية اللعب في النمو العقلي السليم وتطوير النشاط اللغوي للطفل وتكوين شخصيته، وهذا ما أتت به أيضا الأخصائية «فرنسواز دولتو» وكذلك «ماكارينكو[2]» العالم الروسي.

ولا يمكن أن نفرض لعبة معينة على الطفل، كما يفعل عادة الآباء بإحضار لعب لأبنائهم دون استشارتهم في الأمر، وإنما من الأجدى ترك الطفل يختار لعبته مع محاولة مساعدته في ذلك دون فرض لرأيك، فاختيار الطفل لعبته بنفسه أول ما يظهر لك جانبا من جوانب شخصيته، فمن الأطفال من يختار لعبا عنيفة ومنهم من يختار لعبا فكرية، وهناك أولاد يختارون لعب البنات وبنات يخترن لعب الأولاد... فاختيار اللعبة، نقطة مهمة للتعرف على بداية تكوين الشخصية المستقيمة لدى الطفل، وقد تكون علامة على ذكائه أو علامة على معاناته من مشكل نفسي مثلا، طبعا لا يجب أن نغفل عن الانتباه إلى أن تكون اللعبة التي

---

(١) كارل بيولر: أخصائي نفساني ألماني وواضع نظريات اللغة – ١٨٧٩-١٩٦٣- مر عبر كتاباته ونظرياته من علم النفس الذي يهتم بالفكر إلى علم النفس اللغوي.

(٢) انطون سيميونوفيتش ماكارينكو، -١٨٨٨-١٩٣٩- تربوي وكاتب روسي من أصل أوكراني، أسس بعد الثورة الروسية تعاونية الأيتام ضحايا الحرب.

يختارها الطفل مناسبة لسنه، وأنها لن تتسبب له في الأذى، وقد تكون اللعبة هدية تمناها الطفل، تمنحها له حينما ينجح في عمل ما، وهذه وسيلة تربوية هادفة، فأن تطلب من الطفل بقسوة وجفاء أن يقوم بأمر ما، ليس بالأسلوب الصحيح لتعليمه، فحتى لو قام بعمله على أحسن وجه، فسيكون ذلك لخوفه من العقاب ليس إلا، مما سيجعله ينسى فيما بعد كل ما تعلمه، وطبعا لن يقوم بنفس العمل من تلقاء نفسه أبدا، وإنما سينتظر كل مرة أن يحس بالخوف لكي يقوم به، ولكن إن كان يقوم به وهو يعلم أن هناك جزاء مقابل عمله، فسيقوم به بحب وشغف، وهكذا يتعلم وينمي فكره دون أن يحس أنه ملزم ومجبر على ما يتعلمه، وإنما سيعي أنه في مصلحته.

فقد جاء في الأثر، أن من حق الطفل الصغير علينا، رحمته في تعلميه، والعفو عنه، والستر عليه، والرفق به، والمعونة له... بمعنى أن التعليم لا يكون بالعنف وإنما باللين، وأنه إن أخطأ ما طلب منه وجب العفو وليس التأنيب الذي قد يتسبب له في عقد نفسية، كما أسلفنا، انطلاقا من الخجل والابتعاد عن الآخرين إلى النزوح نحو العنف في سن متقدمة، فوجب إعطاؤه فرصة ثانية وثالثة إلى أن يعرف أخطاءه

بنفسه، وفي نفس الوقت يتعلم أنه ليست كل الأمور تنال بسهولة، وأن الفشل لا يعني النهاية وإنما قد تكون تجربة لتحسين طريقة أدائه... هذه الأشياء التي يفهمها الكبار يدركها أيضا الطفل الصغير وإن لم يتقن التعبير عنها...

وأفضل طريقة لتعلم ابنك، هو أن تشاركه في عمله كما لو كنت طفلا مثله تلاعبه، فقد كان الرسول ﷺ، يشارك الحسن والحسين لعبهما وكأنه طفل مثلهما، فقد كان ﷺ، يبرك للحسن والحسين ويخالف بين أيديهما وأرجلهما، ويقول: «نعم الجمل جملكما». وهذا يعني أن تجعل الأم أو الأب نفسهما في مستوى الطفل، فإذا كان يلعب مع إخوته لعبة «الغميضة» مثلا، فلا مانع من أن يشارك أحد الأبوين في ذلك، وهذا ما أكده التربوي «موريس تي يش» حينما قال: «يجب أن تعملوا معهم، أن تشاركوهم في اللعب... أن تتحدثوا معهم بعبارات الودّ والصداقة... إنّ الفرد يجب أن يعرف كيف يجعل نفسه بمستوى الأطفال ويتكلم بلغة يفهمونها». ولا ضرر في أن يخترع أحدهما لعبة فكرية مثلا، مع وعد الطفل بنزهة أو هدية بسيطة إذا ما نجح فيها، أو أن تسابقه في فك ألغاز اللعبة، كأن يجمع أجزاء قطعة مبعثرة، أو يكون كلمات من أحرف

عديدة، كأن تقول الأم مثلا: مَنْ كوّن أطول كلمة سوف يحوز على قطعة «حلوى لذيذة»، وهكذا تنمي فكر أطفالها وهي تشاركهم في مرح لعبهم وضحكهم وسيكون ذلك بالتأكيد ممتعا لها أيضا، فليس هناك أم أو أب لا يسعدان برؤية ابتسامة صغيرهما.

وقد كان رسولنا الكريم ﷺ كما جاء عن عبدالله بن الزبير[1]، لا ينهر الحسن الذي كان يأتي ليلاعبه وهو يصلي إذ قال: «أنا أحدّثكم بأشبه أهله إليه وأحبهم إليه الحسن بن عليّ، رأيته يجيء وهو ساجد فيركب رقبته أو ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل، ولقد رأيته يجيء وهو راكع، فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر». ذلك إدراكا منه ﷺ أنه إن غضب منه وأنزله، لن يفهم الطفل الصغير أن ما قام به، كان فعلا خاطئا، وإنما سيجعله ذلك فقط ينفر منه وربما تزداد تصرفاته سوءا.

ومشاركة الطفل لعبه لا تعني مراقبته ولا الحد من حركته أو تفكيره، وإنما المساهمة فيما يقوم به، مع ترك مساحة له للتعبير عن

(١) عبدالله بن الزبير: هو عبدالله ابن الصحابي الجليل، الزبير بن العوام بن خويلد الاسدي وأمه هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم وأرضاهم.

نفسه من خلال لعبه، ويمكنه هو ذاته أن يخترع لعبة، كأن يرسمها مثلا أو يغير شكلها، وهذا أمر ليس بسيئ، بل بالعكس يظهر مدى نمو الذكاء عند الطفل، فكم من أم تزجر طفلها لأنه يحاول فتح لعبة لمعرفة محتواها الداخلي أو تعنف طفلتها لرغبتها بمعرفة ما تضمه دميتها أو لرغبتها في إلباسها ثوبا آخر مثلا.

ويمكن مراقبة الطفل أثناء لعبه ولكن بطريقة غير مباشرة، كما يمكن طبعا مراقبة برامج الكمبيوتر التي يميل لها أطفال هذا العصر، وذلك باستعمالها قبل إهدائها للطفل وبمشاركته فيها طبعا مع تذكيره بحد زمني لا يجب تجاوزه، حتى لا يصبح مدمنا على هاته الألعاب الالكترونية، وهنا أيضا يمكن فعل ذلك بلين ورفق دون تعنيف، ومن الأفضل محاولة مساعدته على انتقاء برامج لعب تربوية والابتعاد عن برامج الحرب والعنف التي لا تفيد في شيء سوى في تشويش خيال الطفل وزيادة نسبة العنف لديه...

كما أن الطفل في هذه السن يميل إلى الحركة والركض كثيرا، ولهذا فالهدية التي يمكن أن تعدوا أبناءكم بها حين انتهائهم من الدراسة، هي فسحة أسبوعية إلى حديقة ملاهي مثلا، أو ملعب رياضي

أو إلى شاطئ البحر، فهذه الحركية الزائدة هي ما ستجعلك تعرف إن كان ابنك في حال جيد ولا يعاني من أي مشكل عضوي أو تخلف عقلي أو نفسي.

حرية اللعب هو حق من حقوق الطفل، فهو ما ينمي مهارات الطفل سواء العملية أو الذهنية، فهو يركز أكثر، ينصهر أكثر مع محيطه، يتعلم واجباته، كما يعي حقوقه، ويتعرف على حدوده ويتعلم كيف لا يتعدى على حدود الآخرين. فعوض حرمانه من هذا الحق، وجب توجيه لعبه إلى الطريق الصحيح الذي يمنحه فرصة التعلم بطريقة سهلة وممتعة، ولا تنفره من أهله أو من المدارس التي ينفر منها الكثير من الأطفال، لعدم توفر جو تربوي ممتع، فما زالت العديد من المدارس العربية تعتمد النظام التقليدي، ولا تعرف قيمة اللعب في التحصيل العلمي والتربوي، بل هناك من يعده مضيعة للوقت والجهد، ولعل أحدث البحوث التي تبرز العلاقة الوطيدة بين قلة الحركة والتحصيل الدراسي المتدني تفيد قطعيا أن اللعب أمر ضروري لنمو الجسم والعقل معا لدى الطفل...

لكي تعلم ابنك قبّله ولا تعنّفه...

من العادات التربوية السيئة المتعارف عليها قديما والتي ما زالت تستعمل حتى حديثا في بعض المدارس ووسط العائلات، هي أسلوب تعنيف الطفل جسديا وكذلك معنويا إذا ما أساء التصرف أو قام بخطأ ما.

هذا التصرف يلجأ إليه الآباء وكذلك المعلمون، اعتقادا منهم أنه يقوم سلوكيات الطفل وأنه يزجره عن القيام بالخطأ مرة ثانية، وظنا منهم أنها طريقة تعليمية ناجعة. أحيانا كثيرة يتم تعرض الطفل للعقاب دون حتى أن يفهم لم يعاقب؟! ولا أن يفهم لم ينظر الكبار لفعله على أنه خاطئ، ومن هاته الملاحظة البسيطة، نفهم أن تعنيفه أدى فقط لإخافته وإرعابه، ولم يعلمه شيئا بحيث قد يعاود القيام بنفس الأمر حينما ينسى العقاب، لا لأنه يريد ذلك، ولكن لأنه لم يفهم أين الخطأ من الصواب فيما قام به...

وقد أثبتت دراسات علم النفس الحديث أن الطفل الذي يتعرض للعقاب وبشدة يصبح أكثر عدوانية من غيره، وقد ينشأ عنه ما

نسميه بالطفل الديكتاتور أو«tyranical child» وإن الضرب يزيد من المشاكل السلوكية ولا يعالجها، فالطفل لا يميز بين الصواب والخطأ، وإنما فقط يزجر عن القيام بأفعال ما دون أن يفهم لم طلب منه ذلك وبطريقة عنيفة؟

وقد قالت الباحثة «جنيفر لانسفورد[1]»، أنها بعد أن أجرت دراسة في عدة دول، لاحظت أن الأطفال الذين يعاقبون بدنيا يصبحون أكثر عدوانية وقلقا من غيرهم.

وهنا نرى حكمة الإسلام في التعامل مع الطفل واحترام سنه، فحتى أثناء الحروب، كان الرسول ﷺ يخبر الصحابة قائلا: «لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة».

بل إن رحمة الطفل بلغت إلى حد تقييم إيمان الشخص، فقد قال الرسول ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا»!!

والتعنيف ليس فقط بدنيا وإنما أيضا قد يكون معنويا، مثل الإساءة

(١) جنيفر لانسفورد: باحثة في مركز سياسة الطفل والأسرة في جامعة ديوك بالولايات المتحدة الأمريكية.

اللفظية، فكثيرا ما نلاحظ بعض الآباء ينعتون أبناءهم بكلمات نابية إذا ما أساءوا التصرف، وأيضا بعض المدرسين قد يعنفون كلاميا بعض التلاميذ إذا ما أخطئوا.

وهذا النوع من التعنيف اللفظي يؤدي إلى نفس آثار الأول وهو الجسدي، أي إلى عدوانية زائدة لدى الطفل اتجاه المحيطين به، من أصدقاء وزملاء دراسة مرات كثيرة، ولكن هنا قد ينضاف أثر سلبي أشد قوة، لأنه ينبني على امتصاص الغضب الذي يتكون داخل الطفل إثر الإهانة التي سيحس أنه تعرض لها ويحول ذلك إلى خوف دائم وخجل مستمر، مما يؤدي إلى إنطوائيته وعزلته، فنجده غالبا يخشى أن يجيب في الفصل الدراسي، ويخشى أن يبدي رأيه، ويخشى أن يحتك بالآخرين، وثمرة هذا السلوك طبعا وبكل تأكيد طفل يتحول إلى مراهق منزو وبالغ فاشل في الحياة مستقبلا. فالتوبيخ الذي يصل إلى حد الإهانة لا يقل ضررا عن التعنيف الجسدي وقد يكون أكثر ضررا...

والوسيلة المثلى والأنجع لتعليم الطفل بعيدة كل البعد عن هذين الأسلوبين، فأكثر الآباء قربا من أطفالهم هم أكثرهم عطاء وحنانا، والعطاء هنا لا يراد به المنح المادية، وإنما المقصود منه هو الرفق واللين في تعليم الأطفال مما سينعكس إيجابا على نفسيتهم. فاحتضان الطفل

والثناء عليه إذا أصاب، والتجاوز عنه إذا أخطأ، أهم ما يمكن أن يجعل الطفل يقترب منك أكثر، ويخبرك بما يحصل معه، وأيضا يسألك دون حرج، فيتعلم منك بطريقة أبلغ...

فيمكننا مثلا أن نعلم الطفل بإقحامه في عمل منزلي، كأن نجعله يساعدنا في التنظيف ولكن دون أن نثقل عليه، فلنتذكر دائما أن الهدف الأساسي من هذه البادرة هو إقحامه في مجتمعه الصغير أكثر مما هو تكليفه بعمل ما، وذلك لكي يستطيع دون خجل أو حرج الخروج للمجتمع الكبير، كما يمكن تحسيس الطفل بالمسؤولية داخل المدارس أيضا، فهناك تجربة منذ سنين في الصين مثلا حيث تقوم معظم المدارس بتخصيص يوم للتعاون، بحيث تجعل الأطفال ينظمون حجرات الدرس، ويتعاونون فيما بينهم في تنظيف الأمكنة، وكل ذلك في جو من المرح يجعلهم يقبلون على ما يقومون به، دون ضجر ولا ملل وبدون إرهاق أجسادهم الصغيرة.

يمكننا كذلك أن نلعب مع الطفل وننزل لمستواه ونفسر له الخطأ من الصواب بحكايات نحكيها له عن طفل آخر أو شخص أكبر سنا، حتى لا يعتقد أن الأطفال فقط هم من يخطئون.

الود الذي ستجعله بينك وبين طفلك هو ما سيجعله يحبك، والمحب لمحبه مطيع...

وهنا أيضا نعود لديننا الحنيف الذي أمر بإكرام الأولاد، فتقبيل الطفل وملاطفته هما ركيزتان أساسيتان لحياة نفسية مستقرة للطفل، فهما دليل على الرحمة كما قال نبينا الكريم ﷺ، فقد كان ﷺ يقبل الأطفال ويلاعبهم ويعلمهم بالقدوة لا بالعنف والضرب، «وقد دخل عليه يوما الأقرع بن حابس فرآه يقبل الأطفال ويأخذهم ويقربهم فقال الأقرع: تقبلون الأطفال عندكم؟ قال رسول الله ﷺ، نعم، قال: عندي عشرة أبناء والله ما قبلت واحدا منهم، قال ﷺ: وهل أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك» ثم أعلنها مدوية في سماء الجفاء والغلظة وأطلق منهجاً ربانياً وهو «من لا يرحم لا يرحم».

بل رحمة منه للطفل فإنه كان يستعجل الصلاة إذا سمع بكاء طفل حملته أمه وهي تصلي خلفه...

إذن لكي تعلم طفلك قبّله وأثن عليه، ولا تعنفه وتحط من شأنه... ولنتخذ رسولنا الكريم ﷺ أسوة لنا جميعا إذ قال: «علموا ولا تعنفوا».

أسباب وحلول لخجل الطفل

كثيرا ما نلاحظ أن الأطفال في سن حديث ينزوون في أماكنهم، ولا يتحدثون كثيرا ولا يقتربون من الزوار في بيوتهم، وهاته الفئة من الأطفال غالبا ما تكون منعزلة أيضا حتى في الفصول الدراسية، فلا يكون لديهم أصدقاء ولا يلعبون مع الأطفال الذي هم في مثل سنهم أثناء فترة الاستراحة.

البعض من هؤلاء الأطفال قد يكون ناجحا ومتميزا في دراسته أو ما نسميه بالأطفال النوابغ، فيحسون أن تفوقهم لا يسمح لهم بمجاراة الآخرين في ألعابهم، فهي بالنسبة لهم مضيعة للوقت، والبعض الآخر يكون سبب انعزاله نوع من الخجل، أو ما نحسبه خجلا، وقد يكون خوفا من ردة فعل الآخرين.

هنا سوف نتحدث عن النوع الثاني أي: الأطفال الذين يعانون من الخجل والانطوائية.

حينما نريد علاج الداء نحاول عادة البدء بالأسباب، والطفل يولد على الفطرة، فإذا نما في بيئة سليمة فسيكون طفلا عاديا اجتماعيا،

وإذا كان هناك خلل في تربيته سواء في البيت أو في المدرسة، سيجنح إما نحو العدوانية، أو الانطواء والخجل.

إن انعدام الحوار بين الأبوين والطفل وبين المدرسين والأطفال، يكون أهم العوامل التي تؤسس لطفل خجول ومنعزل، وهذا قد يسبب له مشاكل مستقبلية حينما يكبر، فقد يصبح مراهقا ثم بالغا فاشلا مهما بلغ مستوى ذكاءه.

أحيانا كثيرة نفرض على أطفالنا أشياء هم غير راغبين فيها، أو لا يدركون أهميتها بالنسبة لهم، كأن يتهذبوا أمام من يزورنا، باعتبارنا أن اللعب أمامهم نوع من قلة الاحترام، وننسى أنها مرحلة عمرية مررنا بها جميعا، كما نلزمهم بتحية الأقارب والأغراب كما الكبار تماما، وإذا كان الطفل يعاني من الخجل فإنه ينعزل لكي ينفر من هذا الموقف الذي لا يحبه ولا يشعره بالأمان، ولكن إن تم تقديم الشخص للطفل بأسلوب صحيح وسليم، فذاك الطفل سيشعر بالأمان والاستقرار وسيندمج في مجتمع هو أحد أفراده، وليس مجرد شيء نحركه على هوانا، فمثلا يمكن للأم أن تقدم لابنها الشخص الذي ترغب في أن تعرفه عليه، دون أن تنسى أن تقدم ابنها لذلك الشخص فيشعر بأن له شخصية وبأنه كائن

بذاته، فأكبر خطأ أن نقول للطفل: هذا عمك فلان ونتوقف عند هذا الحد دون أن نعرف العم فلان بالطفل واسمه، كما أنه إن لم يرغب في مصافحة الغير فلا يجب إلزامه على ذلك، ويجب احترام قراره. فالتعليم لا يأتي بالإلزام والجبر وإنما بالقدوة...

والطفل حينما يقوم بأمر مهم ويراه كبيرا في نظره فعلينا مراعاة ذلك وعدم التقليل منه، فحينما يأتي لوالدته مثلا مسرعا فرحا، لإخبارها بأمر قام به، وتخبره أن هذا لا يهم أو أنه ليس لديها وقت لسماع هاته التفاهات، أو أي شيء آخر من هذا القبيل، وكذلك يحدث مرات في الفصل الدراسي حينما يجيب جوابا جيدا ويحس بالفخر لذلك، وتكتفي المدرسة أو المدرس بأن يطلبا منه العودة لمكانه. فكل هذا يكون له تأثير كبير على نفسية الطفل، فهو ليس إنسانا كبيرا يستطيع امتصاص الصدمات، بل هو طفل يعيش مجموعة تجارب جديدة، تؤهله للانسجام مع مجتمع كبير، بدءاً من مجتمعه الصغير الذي هو البيت والمدرسة، هذا التأثير قد يجعله يلجأ للانطوائية ويحس بالخجل كلما أراد أن يجيب، خوفا من نفس ردة الفعل مرة ثانية، فيختار أن ينزوي مكانه وتنعدم مشاركته.

لا ضير من أن نثني على الطفل إذا أحسن وحتى وإن لم يتقن، فلا ننتظر من طفل أن يتقن عملا ربما قد لا يتقنه حتى الكبار، ولكن قد يتقنه إن نحن أعطيناه الفرصة لذلك وقمنا بمساعدته عليه، فثقته بنفسه تكبر بثقة الغير فيه، وخاصة أقرب الناس له مثل والديه، فتجعله يحدثهما بكل ما يحصل له، ويسهل عليهما أيضا فهم تصرفاته.

فعلم النفس مثلا لا يعترف بازدواجية «الخطأ والصواب»، بل هناك حوار بين الطفل والوالدين وبينه وبين مدرسيه، فأحيانا كثيرة يمكنه أن يقنعنا بصواب رأيه، فلا يوجد أمر قطعي ولا يمكننا أن نجزم بخطأ الأمر أو صوابه بشكل جذري وإن وجدت ثوابت محددة طبعا، وعليه فإننا إن نهرنا الطفل عما قام به من أمر هو باعتقادنا أو من وجهة نظرنا سيء دون أن يفهم هو ذلك، فإننا نكون بهذا نسيء إلى نفسية الطفل ونجعله يخجل من جوابه، ويمتنع عن المشاركة في المرات الموالية...

وخير مثال على ما جاء به علم النفس، هو ما كان يقوم به خير الأنام ﷺ. فقد قال أنس رضي الله عنه وقد أخذته أمه طفلا صغيرا، ليخدم الرسول ﷺ: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط، وما قال لي لشيء صنعته لِمَ صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟» رواه مسلم.

فلم يكن يظهر ﷺ غضبه من سوء عمل قام به، بل كان يعلمه بلين ورفق دون، حتى ان يقول له بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أن ما قام به كان خطأ، وهذا لأن الطفل ذكي أكثر مما نظن وهو كفيل بمعرفة خطئه لوحده، حينما نعلمه أن نقيض ما قام به هو الصواب دون المباشرة في ذلك...

وكما يجب أن نثني على أبنائنا وألا نعنفهم على أخطائهم، فوجب علينا أيضا مشاركتهم أحزانهم، فالكثير من الأشخاص يظنون أن الأطفال لا يعرفون معنى الفرح والحزن، وهذا أمر خاطئ بشكل كبير، فالأطفال أكثر الناس تعلقا بأشيائهم وإن فقدوها مثلا، فقد يشعرون بالإحباط ويبكونها بحسرة، ويتوجب علينا احترام حزنهم وعدم الاستهزاء منهم، فذاك سيؤدي أيضا إلى انعزالهم عن الآخرين وكتم مشاعرهم والإحساس بالخجل عند الرغبة في البكاء، وقد ينقلب الخجل إلى عنف...

وهنا أيضا يمكننا أن نسرد مرة أخرى حادثة «أبي عمير»، وهو طفل صغير كان لديه طائر جميل وكان الحبيب المصطفى ﷺ كلما مر به يسأله قائلا: يا أبا عمير ما فعل النغير؟ وفي أحد الأيام وجد

النبي ﷺ أبا عمير يبكي فسأله: لماذا تبكي يا أبا عمير؟ قال: مات النغير، فجلس يلاعبه ليخفف عنه عليه أفضل الصلوات والسلام، فسأله الصحابة حينما مروا به: ماذا تفعل يا رسول الله؟؟ فقال: مات طائر أبي عمير فقمت ألاعبه» لقد أدرك الرسول الكريم ﷺ أهمية الطائر بالنسبة للطفل ولم يسخر من بكائه، ولم يتجاهله أيضا كما يفعل العديد من الآباء المنشغلين دائما في عصرنا الراهن، بل جالسه ولاعبه حتى نسي همه وكمده.

ومن طرق إدماج الطفل الخجول أيضا هو إقحامه في ألعاب في البيت أو في المدرسة، فاللعب أكثر شيء يجعل الطفل اجتماعيا، وطبعا مع مدح عمله ونباهته والابتعاد عن تعنيفه أو التقليل من شأنه.

أما إذا كان الطفل يتصرف بشكل طبيعي في البيت، ولكن بعض مدرسيه يخبرون والديه أنه منعزل وانطوائي، فهنا يجب البحث عن السبب في الأغلب داخل المدرسة، فقد يكون السبب عدم الثقة بمدرس ما أو مدرسة، وانعدام الثقة يكون في الغالب متبادلا، فحينما يحس الطفل أن من يقابله ينقص من شأنه ولا يثق بقدراته فإنه يعكس

هذا بعدم ثقته بالطرف الآخر هو أيضا وبامتناعه عن المشاركة والكلام.

وقد يكون الطفل أيضا رغم أسلوب حياة سليمة ببيته، عنيفا وشديد الحركة، وهنا أيضا يجب البحث داخل المدرسة، فقد يكون مقموعا من طرف أحد المدرسين أو المشرفين، فيفجر طاقته في البيت والعكس صحيح أيضا، فطفل يعاني من قمع حريته وتعبيره داخل أسرته إما يتحول لطفل منعزل أو طفل عنيف داخل المدرسة...

فلا ضير من أن تسأل الوالدة ابنها، ما الذي قام به في المدرسة، وتسأله عن مدرسيه أو مدرساته، وأيهن يفضل وأشياء أخرى، محاولة بذلك بلورة حوار بينها وبين ابنها، وهذا لا يقتصر فقط على الأم وإنما أيضا من واجب الأب كذلك.

فتوازن الطفل النفسي يبدأ من توازن في المهام بين الأبوين وليس غياب طرف وحضور الآخر...

تأثير التمييز والمفاضلة بين الأطفال على نفسيتهم

التمييز أو المفاضلة بين الأطفال من نفس الجنس أو من الجنسين، لها تأثير وخيم على نفسية الطفل والمراهق على حد سواء، لا تضر فقط الطفل الذي تعرض للتمييز، ولكن تسبب الضرر أيضا للذي فضل عن الآخرين، فالأول قد ينمو وهو يحس بالنقص مقارنة بإخوته، ويتولد لديه إحساس بالكره اتجاه والديه واتجاه إخوته أيضا، وقد يؤدي ذلك إلى انطواءه وعزلته، وفي حالة المراهقين الذين يكونون أقرب إلى المرور للفعل الجسدي، فقد يؤدي ذلك إلى محاولتهم الانتحار، وإن نما الطفل بدون مشاكل واضحة وتقبل وضعه هذا بين أسرته، فقد تطفو مشاكله النفسية بعد أن يصير رجلا، أما الثاني فقد يصيبه الغرور فيتعلم التعالي على الغير مما يجعله أيضا إنسانا غير اجتماعي، لأن الأسلوب الذي ينهجه يجعل الآخرون يكرهون التقرب منه وإن فعلوا فإنما للاستفادة منه فقط، وفي كلتا الحالتين فإن هاته الأسر التي ميزت بين أبنائها، تنتج رجالا ونساء غير قادرين على اقتحام المجتمع العريض، وبالتالي أشخاصا بإعاقات نفسية لا تمكنهم من العطاء والإنتاج، ناهيك عن مشاعر الحقد التي تكبر بين الأبناء، وقد تصل إلى حد العداوة.

وقد نهى الإسلام عن المفاضلة بين الأولاد والتمييز بينهم، سواء كان التمييز بين أطفال من نفس الجنس أو بين الإناث والذكور، وذلك لما يترتب عن هذه المفاضلة من آثار وخيمة على نفسية الأطفال تصل إلى حد العقد النفسية وإشاعة الحقد والبغضاء في بعض الأحيان بين الإخوة في بيت واحد، بل قد تستمر تداعيات ذلك إلى سن أكبر.

وفقا لبحث أجري في جامعة ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن كل طفل داخل العائلة هو في حالة منافسة مستمرة لترسيخ تعريف لنفسه كشخص يريد أن يكون مختلفا عن باقي إخوته سواء الذكور أو الإناث، وعليه فانه يلمس بسهولة التمييز والتفرقة بينه وبين باقي إخوته سواء كان من حيث الاهتمام أو السلوك أو تفاعل والديه معه ومع باقي إخوته...

إذن الطفل يسعى في قرار نفسه أن يكون متميزا لذلك، فهو يكون قابلا للتأثير بأي شعور بتمييز غيره عليه والتفضيل بينه وبين آخر، وقد نهى رسولنا الكريم ﷺ عن هذا التمييز بقوله «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم» رواه بخاري ومسلم. بل وقد أكد على ذلك في نهيه عن التمييز بين الابن الذكر والأنثى في حديثه: «من كانت له أنثى فلم

يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة» رواد أبو داود، وهنا نجد أن النبي ﷺ لا ينهى فقط عن التمييز بين الجنسين ولكن أيضا يذكر بالجزاء من عند الله لمن لم يؤثر الولد على الأنثى، وعدل بين أبنائه من كلا الجنسين، وهو التمييز الذي نجده في العديد من الأسر العربية التي مازالت ووفقا لتقاليد بالية تفضل المولود الذكر على الأنثى، فتجد من يخبرك باستمرارية النسب العائلي، ومن يعتبر ولادة الذكر دليل فحولة وفخر إلى غير ذلك من الأسباب التي ترتبط ارتباطا وطيدا بأعراف مجتمعاتنا العربية، والتي تميز حتى في التربية بين الذكر والأنثى، بحيث تبيح التصرف الخاطئ للابن وتعاقب عليه الابنة وتمنح حريات أكبر للابن، وتحرم الابنة من أبسط الحقوق أحيانا...

بل إن عدم التمييز والعدل يجب أن يكون في كل شيء، سواء الأشياء المادية أو المعنوية، مادية كشراء الهدايا مثلا لأحد الأبناء دون الآخرين، وقد جاءت توصية الرسول الكريم ﷺ واضحة في هذا المجال، حينما أعطى والد النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عطية له دون باقي إخوته، وأراد أن يشهد رسول الله ﷺ على تصرفه، فسأله ﷺ، هل أعطيت لأولادك مثل هذا؟ قال: لا، فرد عليه الرسول الكريم قائلا: فاتقوا الله واعدلوا

في أولادكم» وفي رواية أخرى قال: لا تشهدني على جور، وإن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم» رواه البخاري ومسلم والإمام احمد.

وكما سلف الذكر، فالتفضيل بين الأبناء لا يكون فقط بالهدايا والعطايا المادية، ولكنه مضر أيضا حتى وإن كان معنويا، بل قد يكون أكثر ضررا، كأن يقبل الأب أو الأم ابنا دون الآخر، أو يثنيان عليه دون أخيه أو أخته.

وحرصُ الإسلام كدين على منع التمييز والتفضيل بين الإخوة، جاء نتيجة الإدراك التام لما يمكن أن يترتب عن ذلك من عقد نفسية قد تستمر إلى ما بعد مرحلة الطفولة، فقد يؤدي التمييز بين أخوين مثلا - وكما سلف الذكر- إلى نشوء مشاعر بغض بينهما قد لا تنجلي مع الأيام، وإنما تكبر الهوة بينهما حتى بعد أن يصلا سن البلوغ، وقد تؤدي إلى الإحساس بالنقص لدى أحد الإخوة الذي كان يرى أن أخاه أوفر حظا من حيث تلقيه لعبارات المدح والثناء والعطايا، وقد يكون إحساس الأنثى بنقص قيمتها أمام الرجل إذا ما أعطي الابن الذكر حقوقا أكثر من أخته بدعوى أنه شاب ويمكنه أن يفعل ما يريد، وهذا أيضا قد نهى عنه الإسلام، وبين أن الذكر والأنثى يستويان في العمل والثواب والعقاب،

فقد قال رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام «إنما النساء شقائق الرجال» رواه أحمد وأبو داود.

وقال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ومن هنا نرى إن شمولية الإسلام لم تغفل عن إحدى أهم قواعد بناء النفسية السوية للأطفال، وذلك بالتأكيد على عدم التفضيل فيما بينهم، سواء كانوا من نفس الجنس أو من الجنسين، ولهذا على الآباء مراعاة تصرفاتهم، وخاصة في المراحل العمرية الأولى للطفل حيث تعد أساس البناء النفسي للطفل، وحيث تكون ذاكرة الطفل أكثر قدرة على تخزين معلومات الماضي، فأي تداعيات نفسية لاحقة نجد لها آثارا أكيدة في سن مبكرة.

كيف يتجاوز الآباء المنافسة السرمدية بين الأبناء

يختلف الأمر حينما يكون الطفل وحيد أبويه عنه عند قدوم مولود جديد، حينها ينشأ نوع من المنافسة بين الطفل الأول والوافد الجديد، هذه المنافسة التي اعتبرها ديفد ليفي[1] David Levy ومنذ سنة ١٩٤١ مرحلة كلاسيكية وعادية في حياة الأسر يمر منها كل طفل بقدوم مولود جديد، وهو ما أجمع عليه أيضا العديد من الأخصائيين المعاصرين...

أما سيجموند فرويد وفي تفسير الأحلام فقد تساءل وقال «لماذا نعتقد أن العلاقة بين الأخوين عليها أن تكون حميمية ولطيفة، فنحن نعرف جميعنا إخوة أعداء، فالعداء يبدأ من الطفولة وقد يستمر للأبد، فالعديد من البالغين الذي يحبون بحنان إخوانهم وأخواتهم عاشوا أيضا في طفولتهم استعدادا لحرب مستمرة فيما بينهم».

---

(١) ديفيد ليفي، مدير معهد إرشاد الطفل «l'Institut Guidance infantile» بأمريكا، ادخل عليه اختبار رورشاخ Rorschach الحديث آنذاك وهو من ادخل مصطلح «المنافسة بين الأشقاء» سنة ١٩٤١ وهو صاحب الدراسات حول هذا المفهوم «studies in sibling rivalry» الذي نشرته مجلة Orthopsychiatry الأمريكية على شكل مقالات سنة ١٩٣٧.

ويرى «جاك لاكـان» أنها كراهية ملازمة للحب، وتلي تلك الحاجة للتخلي عن الاندماج أو الذوبان في الآخر، وهو ما أسماه hainamoration، ويقصد تلك العلاقة بين الحب والكره والتجاهل فبالنسبة له هناك منافسة أخوية تتجه نحو حب سلمي فيما بعد أو في مراحل عمرية متقدمة بينما آخرون تشتد بينهم المنافسة إلى أن تتحول إلى كره متبادل يؤدي في ألطف الأحوال إلى التجاهل، وفي أحوال أشد إلى عنف متبادل...

وإذا كان «ليفي» يراها مرحلة منافسة اعتيادية وفرويد يراها اعتيادية ولكن قد تكون مرحلة عداء كبيرة تبدأ من الطفولة بين نفس الإخوة، فالتاريخ يؤكد أن المنافسة بين الإخوة قد كانت منذ ظهور البشرية، وقد تتحول فعلا لعداء قاتل، وقد حدثت هذه المنافسة عند أول ولدين لسيدنا آدم عليه السلام وأمنا حواء، وهما هابيل وقابيل وورد ذلك في ذكره سبحانه وتعالى في سورة المائدة ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾...

وما قتل قابيل لهابيل إلا نتيجة منافسة بينهما، فأحدهما تقبل الله قربانه، والآخر ترك قربانه ولم تتناوله النار التي نزلت لتأكل فقط الجذعة السمينة التي تقرب بها هابيل لربه وتترك حزمة الزرع التي تقدم بها قابيل كقربان...

منافسة أيضا تحدثت عنها الأسطورة الرومانية التي تتحدث عن مؤسسي روما وهما التوأمان رومولس وريموس، والتي وإن تحدثت عن لحمة هذين الاثنين إلا أن المنافسة بينهما وحسب الأسطورة انتهت بقتل ريموس من قبل رومولس نتيجة عبوره بسخرية الخندق المقدس الذي خطه رومولس لبناء سور، وتتحدث الأسطورة عن كون هذا الأخير ندم لقتله أخيه ودفنه بتشريف له على هضبة افينتين...

هذه المنافسة بين الإخوة تظهر أول ما يأتي للعائلة مولود جديد، فهو وفقا لإحساس الطفل الأول شخص غريب يشكل تهديدا للحمته مع أسرته، ويفقده وحدويته بين أفرادها...

وتكون هذه المنافسة المبنية على الخوف من الآخر والغيرة منه شديدة أكثر حينما يكون الأطفال من نفس الجنس أو نفس السن،

وأحيانا أيضا حينما يتبين أن أحد الأطفال متفوق أكثر مما يجعله يتلقى التهاني والإعجاب، ليس فقط من قبل أسرته، ولكن كل أقاربه ومحيطه، وهناك مرات يكون فيها أحد الأطفال يعاني من مرض ما أو عوز عقلي مثلا، فتقوم الأسرة برعايته أكثر من الطفل السوي -وهو أمر عادي- على ألا يكون ذلك على مرأى دائم من الطفل الآخر الذي تحمله أحيانا عبء رعايته أيضا مما يفقده لذة التمتع بمرحلة الطفولة...

منذ سن السنة، يبدأ الطفل بالشعور بإحساس والديه، وقبل السنة يستطيع الرضيع أن يشعر بدفء حضن والدته ولا يتقبل اللجوء ليدي غيرها، وحوالي السنتين أي في سن الفطام يبدأ هذا الطفل الصغير بفهم بعض القواعد العائلية، ويكون حساسا لقدوم أخ جديد أو أخت جديدة لأحضان الأسرة، وفي هذا السن يمكنه أن يكون لطيفا مع الوافد الجديد، ويمكنه حتى أن يلعب دور حمايته إذا ما أدرك الوالدان كيف يقربان بين الأخوين، وانطلاقا من سن الثالثة يمكن للطفل أن يميز وضعه وترتيبه داخل عائلته مقارنة بباقي إخوته ويمكنه حتى أن يتأقلم مع ذلك...

يرى فرويد أن العلاقات الأخوية هي امتداد لـ«عقدة أوديب»

حيث تستمر المنافسة بين الإخوة للفت نظر الأم والأخوات يحاولن لفت نظر الأب، غير أن الأبحاث المعاصرة أفقدت هذه النظرية بعضا من قيمتها وعوضتها بمقاربة نفسية جديدة، وهي أن هذا النوع من المنافسة بين الإخوة ما هو سوى محاولة للبحث عن أهمية الطفل لنفسه داخل منظومة الأسرة، فاحترام ترتيب المواليد وفقا لـ«ألفريد ادلر»[1] Alfred Adler مثلا يشكل جانبا مهما في تنمية شخصية الطفل وهي النظرية التي أجمع الأخصائيون النفسيون المعاصرون على تأثيرها الفعلي على العلاقة ببن الإخوة إضافة إلى عامل السن المتقارب بين الأطفال وأيضا مقاربة النوع...

يرى «ادلير» أيضا أن هذه المنافسة تشكل عملية تعويض هي نفسها تقتضي ميلا للهيمنة، وهي تشكل نظرية أساسية تضاهي نظرية الليبيدو أو «الرغبة الجنسية» لدى فرويد، بحيث أن الإخوة والأخوات اللذين يوضعون في موقف دوني، بحيث أن أحدهم يسحق من قبل الأكبر أو يخلع من عرشه من قبل مولود جديد، هؤلاء يطورون باستمرار

(١) ألفريد ادلر: طبيب ومعالج نفسي من النمسا ولد سنة ١٨٧٠ وتوفي سنة ١٩٣٧ وهو مؤسس علم النفس الفردي.

سلوكيات مثل جنون العظمة، التفوق، التشنيع والقدح ويكونون أيضا دائمي البحث عن أعذار لتعويض ضعفهم الحقيقي أو المتصور لديهم...

هذه المنافسة والتي كما أسلفنا تعد أمرا طبيعيا واعتياديا لدى الأسر، إن كان لا يمكن إلغاؤها لأن ذلك سيكون ضد قوانين الطبيعة البشرية فيمكن على الأقل التحكم في تبعاتها والتقليل من عنفها وتلطيف مرورها من قبل الأباء، بحيث عليهم الانتباه بحزم لمسألة التفضيل التي تحدثنا عنها سابقا وبالاستعداد لهذه المرحلة، وذلك خلال أشهر حمل الأم التي تكون الفترة المثالية لتأسيس قدوم المولود الجديد وتقبله بشكل أكبر من قبل الطفل الأول...

على الآباء أن يبتعدوا ما أمكن عن التمييز بين أطفالهم، ويتوجب عليهم أيضا ألا يسعوا لتصنيفهم سواء ماديا أي من حيث ما يشترونه للمولود الجديد ويبخسونه للطفل الأول، فيبقى هذا الأخير طفلا أيضا يحتاج لرعاية خاصة وعناية فائقة، ولا يمكنه تفهم احتياجات أخيه الأصغر أو أخته الصغرى، وكل ما يدركه أن هناك تمييز يحصل بقدوم هذا الشخص الصغير الجديد، أيضا من الناحية المعنوية، نجد العديد من الآباء يبلغون حد النسيان أن لهم طفلا آخر ولا يلاعبون إلا المولود

الجديد، ولا يتحدثون إلا عنه وأحيانا يحملون الطفل الآخر مسؤولية بكائه، وكم سمعنا جميعنا جملة معروفة تتكرر حين بكاء المولود الصغير «ماذا فعلت بأخيك، هل ضربته، لماذا يبكي؟»

هي جملة قد تبدو تلقائية لخوف الآباء على طفلهم الرضيع، ولكنها جملة تضع علامات استفهام كبيرة لدى الطفل الأول، «لماذا ألام على شيء لم أقم به، هل سيستمر هذا الوضع؟ هل كان من الأفضل لو بقيت صغيرا جدا لكي لا يحضروا شخصا آخر أصغر مني؟» إلى غير ذلك من الأسئلة والتساؤلات...

أحيانا هذه الأسئلة يمكن أن تطرح حتى بصوت عال من قبل الطفل...

هذه المرحلة دقيقة جدا وعلى الآباء توخي الحذر الكبير فيها لكي لا تتحول من مجرد منافسة عادية-قد تكون في أصلها صحية، فهي تجعل الأطفال يعبرون عن اختلافاتهم بينهم وبين إخوتهم وأخواتهم وأيضا بينهم وبين الآخرين- إلى إساءة معاملة أو أذية جسدية، ويمكن التكهن بذلك من قبل الآباء، إذا كان ما يظهره الطفل لأخيه متكرر

باستمرار، فهذا يعني أن المنافسة تحولت إلى هاجس وولوع مرضي يؤدي إلى عنف، أما إذا كان يبدي غيرته أو يبكي لإحساسه بالضيق من أخيه ولكن ليس بشكل مستمر بحيث يعود للعب أو ينسى الأمر، فهنا يتعلق الأمر بمجرد منافسة عابرة بين الإخوة، ولكن لكي لا تتحول إلى عنف مستمر، على الوالدين توخي الحذر كما سبق الذكر...

في حالة تقارب السن بين الإخوة، فإن المنافسة بينهم غالبا ما تحدث عنها حوادث صغيرة ولكن بشكل متبادل وواضح، بحيث يمكن لأحدهما أن يدفع الآخر، ويفعل الثاني نفس الشيء وينتهي الأمر بعد دقائق أو أقل، ولكن في حالة التعنيف من قبل أحد الإخوة أو التعدي فإنه يظهر واضحا أنه ليس هناك توازن في القوى بحيث نرى مثلا أن أحد الإخوة هو الذي يضرب دائما الآخر بسبب أو بدون سبب، فالإساءة تقتضي بالنسبة له أن يبرز قوته وهيمنته على الآخر سواء بضربه أو بإهانته...

المنافسة العادية والتي قال عنها «ديفد ليفي» أنها مرحلة اعتيادية داخل كل الأسر يمكنها أن تكون مرحلة صحية تؤسس لذوبان أخوي أو انصهار اخوي، أي انه وكما يقول المثل الشائع «لا محبة إلا بعد عداوة»، بحيث يتحول الطفل الذي كان يرى في المولود الجديد منافسا له إلى

حام له، يشعر وكأن من واجبه أن يحرسه ويحميه ويقيه من الآخر، فهو يلعب دور الكبير والأقوى وهو دور يحبه أيضا...

هذه المنافسة التي تولد غيرة هي سياق تطوري ليتعلم الطفل أشياء كثيرة من خلال المقارنة وفهم الاختلاف بينه وبين إخوته وأخواته حتى يشكل شخصيته المستقلة...

إذن العلاقة بين الإخوة علاقة وطيدة جدا، لأنها ترتبط بذكريات حميمية منذ الطفولة، فهناك طفل شهد ولادة الآخر، وبدأ معه مراحله العمرية وتقاسما أشياء كثيرة ومراحل عمرية مختلفة، وعليه فإن هذه العلاقة القوية بين الأشقاء وحتى بين الطفل وأخ له متبنى في سن حديث، هي علاقة تصبح قوية بسبب ارتباطها بأوقات ماضية متجذرة وفقا لما تقوله الدكتورة «فرنسواز بيل» Françoise Peille[١] في كتابها، «الإخوة والأخوات، كل يبحث عن مكانه» وتقول أيضا إن الإخوة من

---

(١) Françoise Peille قسم الطب النفسي في مستشفى» سانت فنسنت دي بول» بفرنسا، أخصائية نفسية ومحللة نفسية، قسم الطب النفسي الخاص بالأطفال، بروفسور في مركز التكوين الدائم للممارسين العامين مع الأطفال COPES، صاحبة العديد من المؤلفات منها: الأب، الأم والطفل، لكل منزلته- إخوة وأخوات كل يبحث عن مكانه- تعلم الاستماع للطفل، من الرضيع إلى المراهق....

نفس الأبوين يجتمعون أساسا بكونهم ولدوا من نفس البطن، وهو المكان الذي تبدأ فيه مرحلة الطفولة الأولى التي تؤسس للرابط الأخوي ويرى الإخوة والأخوات أنفسهم على أنهم يشكلون قطعا لجسم واحد، خاصة مع التشابه الفسيولوجي بينهم وهو ما يجعل العديد من الأشخاص حتى حينما يكبرون يفخرون بانتمائهم لعائلة ما أو لنسب ما...

ومن الأشياء التي يتجاهلها الآباء في حين تكون واضحة جدا لمن هو خارج الأسرة ويؤكدها أيضا أخصائيو علم النفس التربوي، هو كون تأثير الإخوة على بعضهم البعض أكبر بكثير من تأثير الأبوين على أبنائهم، فالطفل الأصغر غالبا ما يختار أخاه الأكبر كمثال يحتذي به، وفي تجربة مدرسية بالمغرب، قام بعض الأساتذة بكتابة ورقة استطلاعية أعطوها لمجموعة تلاميذ صغار لملئها وكانت تضم إضافة إلى الاسم والنسب ومعلومات عامة، سؤالا مهما وهو، من مثلك الأعلى، غالبية الأطفال ممن لديهم أشقاء، أجابوا أخي الأكبر أو أختي الكبرى، وأحيانا يكتبون اسما فقط ليتضح أن الاسم هو للأخ الأكبر أو للأخت الكبرى، ونلاحظ أيضا أن الشقيق الموالي للأول مباشرة من حيث العمر يكون أكثر تأثيرا من الذي يكبرهما معا مثلا، فحينما

يصرخ هذا يقوم الأصغر بتقليده بالصراخ وحينما يبكي نجده أحيانا يبكي لبكائه دون أن يعلم سبب ذلك فباعتقاده ما يخيف أخاه الأكبر بالتأكيد سوف يخيفه هو أيضا...

هذه الخصائص أحيانا كثيرة يغفل عنها الآباء ويوجهون عنايتهم للمولود الجديد أو للطفل الأصغر فقط في حين أنهم يهملون قدوته، يهملون الأخ أو الأخت اللذان يمكن أن يشكلا خط مسار لحياة الأصغر من الأطفال...

إذا فهم الآباء أن العلاقة بين الإخوة علاقة تأسيسية لشخصيات أطفالهم فسيوزعون انتباههم ورعايتهم بالتساوي على أبنائهم، وعليهم أن يدركوا كذلك، أنها علاقة متميزة بتجاربها الفردية تعلم كل طفل على حدة ماهية الحياة، يتعلم فيها من خلال أفراحه وأحزانه وتشكل طريقا له، إن كان في الأول يرسمه في ثلاثية بين أبيه وأمه، فهو يلزم فيما بعد لبلورته بشكل اكبر وأعمق ويسعى دائما لإيجاد مكانه وسط هذه المنظومة التي كانت ثلاثية الأبعاد، وتحولت لتصبح أكبر وأكبر، ومن خلالها سوف يتمكن من أن يقتحم منظومة اكبر من الأسرة وهي محيطه المجتمعي...

علم طفلك بالحوار معه

من العادات السيئة في مجتمعاتنا وخاصة داخل أسرنا، هو انعدام أهم شيء يمكننا من معرفة وفهم الآخر والتواصل معه، وهو الحوار...

للأسف بتنا لا نجد للحوار مكانا وسط عائلاتنا، لا بين الزوج وزوجته ولا بين الآباء والأولاد، فنحن نعده من الأمور الثانوية ونحاول التركيز على أمور قد تبدو لنا أهم بكثير، مثل الربح المادي للقيام بمسؤوليات البيت على أحسن ما يرام، ونظن أن أطفالنا لا يحتاجون منا سوى كل شيء مادي، والمفارقة أننا ننتظر أن ينشأ أطفالنا على تربية حسنة وإذا ما ساء الأمر فكل من الأبوين يجد طريقا لإلقاء اللوم على الأخر.

والتربية كما هو معلوم لا تحتاج لشخص واحد دون الآخر فهي متوقفة على كلا الأبوين...

الحوار بينك وبين أبنائك هي قنطرة لعبور قيم الأجداد إلى الأحفاد، وتتمة لتاريخ مضى بتمريره لمستقبل آت.

ومن هنا ينبغي علينا أن نحاور أبناءنا وكأننا نحاور المستقبل، ففلذات الأكباد هم حاضر اليوم ومستقبل الغد.

إن الهوة التي نشأت بين الآباء والأولاد بسبب انعدام الحوار، غالبا ما يكون سببها تصغير الأبناء والتقليل من قدرهم، فأحيانا كثيرة يرى الكبير سنا أن محاورة الطفل عبث، وربما أكثر من ذلك فقد يعتبرها مضيعة للوقت، وقد يقلل من أمره بذلك فلا يسمح له بالحديث أمام الكبار ولا حتى بمناقشته في أمور تتعلق به شخصيا!! بحيث يتخذ القرار عنه معتقدا أنه يملك الحلول الناجعة لكل شيء وأنه أدرى بمصلحة الطفل منه هو شخصيا!!

التربية بدون حوار هي عبارة عن قواعد وقوانين تنفذ، ولا يسمح للطفل أو الابن عموما أن يتجاوزها.

هذا الاستخفاف بقدر الطفل هو ما يجعل الآباء يرون ثمارهم تنضج، ولكن بطريقة غير سوية، وهي أيضا ما تجعلهم يتجهون نحو من يسمعهم من أصدقاء أو زملاء، وقد يستأنسون لمن يرغب بأذيتهم لا لشيء إلا لأنه استدرجهم بما فقدوه داخل أسرهم، أي الحوار...

فكما هو معروف إن الشواذ الذين يعتدون جنسيا على الأطفال الصغار، غالبا ما يمتلكون قدرة فائقة على الاستدراج بالحديث، فتكون

أول خطواتهم إنشاء نوع من الحوار بينهم وبين الطفل الذي يجد لديهم ما يفتقده في بيته، فتتكون بينه وبين الجاني ألفة تجعله يتبعه مغمض العينين...

إن الإسلام يجعل من الحوار بين الآباء وأبنائهم الركيزة الأساسية في التربية، ويتجلى لنا ذلك من موقف النبي إبراهيم عليه السلام حينما استشار ابنه إسماعيل في أمر إلهي وهو يعرف أنه قاضيه لا محالة، لأنه وحي يوحى ولم يكن أمرا بشريا، وإنما أراد بذلك إثبات أهمية الحوار والمناقشة وجعل ابنه إسماعيل عليه السلام يفهم لم عليه أن يقوم بما أمر به، فقد قال سبحانه وتعالى عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ سورة الصافات.

حاور إبراهيم إسماعيل ابنه عليهما السلام، ففهم الولد ما طلب منه وامتثل لأمر والده وقبله لأنه أمر الله تعالى، فكان أن غير الله الأضحية بكبش بدل إسماعيل عليه السلام، وكان يمكن أن يغير الله وحيه لإبراهيم قبل حتى أن يشاور ابنه، ولكن لله حكمة

في ذلك، أولها أن يرى طاعة نبييه له، وثانيها أن يبرز لنا قيمة الحوار والمناقشة، وأن لها ثمارا أبلغ بكثير من العند والعنف -والله أعلم-، فحتى وهو ينوي ذبح ابنه امتثالا لوحي الله تعالى، كان إبراهيم عليه السلام رحيما في شرحه، وقد كان بإمكانه أن يفعل ولا يستشيره في أمر هو فاعله كيفما كان رده...

وهنا نذكر حديث المحللة النفسية «فرنسواز دولتو» حيث قالت: «ينبغي للأهل أن يحدّثوا ولدهم منذ صغره عن الله بكل بساطة ودون أيّ تصنّع كما يتحدّث الإنسان عن أيّ أمر مهمّ في حياته. فهكذا يهيئونه كي يكتشف في الوقت المناسب، ما يمثّله الله بالنسبة إليهم».

وهذا ما يوافقه العقل والحكمة ويبرز قيمته ديننا الحنيف، إذ أنه حتى في المسائل الدينيةّ، لا يجب أن نلقنها تلقينا للطفل وإنما أن ندرجها له حوارا يجعله يفهمها قبل أن يعتقدها إيمانا.

الحوار لا يصغر من قيمة الآباء وإنما بالعكس يجعلهم أقرب إلى أولادهم، فهؤلاء أيضا ليسوا مجرد شيء يملكه الآباء وإنما

كائنات تمتلك عقلا وحواسا ومشاعر، وعليه فإن التقليل من شأنهم ليس طريقا للتربية السليمة، فنرى أن القرآن الكريم مثلا، أكبر صغارا وجعلهم في مصاف الكبار ومن أمثال ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ سورة مريم، فإذا كان الله يحاور نبيا وصبيا؟ أفنتعالى على ذلك نحن البشر؟ أفليس من حكمة في كون الله تعالى يخاطب بلغة الحوار عبدا هو الأحوج إليه والله غني عنه؟!

الحوار هو ثقافة نتربى عليها ونربي عليها أولادنا، ففي مثل هاته السن الحديثة يتعلم الطفل الصواب من الخطأ بالحوار والمناقشة البعيدة عن العناد وفرض الرأي، وهنا يتبين لنا عسر أن يتعلم الإنسان في كبره ما لم يتعلمه من قيم في صغره، فمن شب على شيء شاب عليه...، ولذلك وجب على الآباء أن يصنعوا ثقافة حوار بينهم وبين أولادهم، فيستطيعون بذلك أن يخلقوا جيلا سويا ومستقيما، فيكسبون ثقة أبنائهم ويجعلونهم يستشيرونهم دون اللجوء إلى غيرهم وهنا أيضا يمكننا أن نسرد مثل نبي الله يعقوب عليه السلام في حواره لابنه

يوسف عليه السلام كما جاء في القران الكريم: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾. وهنا نرى أن الحوار جعل الابن يستشير في رؤاه وأعقب ذلك نصيحة الأب...

ولا يمكننا أن نرسم معالم الحوار ونجعل له بداية ونهاية، بل يجب أن نكون على استعداد للإجابة على أسئلة الطفل دائما، وإن لم نكن نعرف الجواب فيمكننا إخبار الطفل بأننا نحتاج وقتا للتفكير ولا يمكننا إجابته الآن لأننا لا نعلم كل شيء، وهذه طريقة تعلم الطفل محدودية الفكر لدى كل شخص، ولا تجعله يخجل من نقص درايته بالأمور، وهكذا يحاول أن يسأل أكثر دون أن يخجل من جهله لأنه يعرف مسبقا أن كلا منا كبيرا وصغيرا له فجوات معرفية كثيرة، ويحاول أن يملأها بالسؤال والحوار.

وأنسب الحوارات هو الحوار الصادق، فالطفل يمكنه أن يميز نبرة الصدق من عدمه منذ بدايته الأولى كما قالت الأخصائية «فرنسواز دولتو» في كتابها «كل شيء لغة»: «Tout est langage»:

بخلاف الحيوان لدى الإنسان كل شيء يمكنه الكلام، فالحركات التي تبدو لنا غير معقولة وعشوائية لها أيضا معنى وتدخل ضمن حوار رمزي يدخل في نطاق ما أسمته دولتو «الأخوة بالنوع» «fraternité d'espèce»، فالكلام والتعبير، كل هاته أشياء يمكنها أن تعلم الاختلاف بين طفل وآخر (و قبل كل شيء بينه وبين الأم) مما يجعلنا أكثر قدرة على مشاركة الطفل إحساساته، وذكرياته وأفكاره.

والحوار المفيد هو الحوار الصادق، فالطفل يعرف صحة ما نقوله من عدمها، وفي هذا أيضا قالت الأخصائية «فرنسواز دولتو»: «يجب أن نتحدث مع الطفل وليس فقط أن نتحدث للطفل والأهم أن نكلمه بصدق، فلا يمكننا أن نكذب على اللاشعور، لأنه يعرف دائما الحقيقة».

بالفعل فإن الطفل يتبين نبرة الحقيقة من خلال سماعه الصوت منذ الساعات الأولى!! لأنه يميز بين ما ننطق به وما نشعر به، بحيث إن صدق حديثنا والذي يبدو من نبرة صوتنا ومن حركاتنا هو ما يؤسس لذلك الوفاق بين الحيوية البيولوجية والحيوية الاجتماعية.

وقد ذكرنا من قبل ما كان من حديث بين رسول الله ﷺ وبين

والدة عبدالله بن عامر رضي الله عنهما حينما دعت طفلها قائلة: ها تعال أعطيك» فقال لها ﷺ: «ما أردت أن تعطيه؟» قالت «أعطيه تمرا»، فقال لها: «أما أنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة».

كما أن الحوار لا يتعلق بأمر معين، فقد يكون حوارا لمجرد المزح ومشاطرة الطفل لعبه، وقد يكون حوارا يستدرج فيه ابنه لمعرفة أخباره الدراسية، ولكن دون أن يتحول ذلك إلى تحقيق بوليسي، والأهم أن يكون الحوار صادقا ومبنيا على الثقة والاحترام وليس على الخوف والتوتر، وهكذا يمكن للابن أن يبدأ بالحوار، ويمكن أن نشير هنا إلى أن أهم الحوارات وأكثرها إفادة هي التي يبدأ بها الطفل وليس الأب أو الأم، لأن الحوار الذي يأتي من فم طفل أو مراهق فهو دليل احتياج للمعرفة وبالتالي فما سيسمعه سيرسخ في ذهنه أكثر، كما أنه سيكون دليلا آخر على رغبة الطفل في التقرب من والديه، وهنا يمكن أن يستغل الآباء الفرصة لخلق حوارات جديدة بينهم وبين أبنائهم دون أن تكون متداخلة بشكل يشتت تركيز الطفل.

وكما أن الحوار مهم لتربية سوية فيجب أن نحترم عدم رغبة الطفل في الحديث، فهو له كما ذكرنا شخصيته المستقلة وظروفه

كأي إنسان، فحينما لا يرغب بإخبارنا عن سبب صمته فلا يجب أن نلح عليه، ولكن من الأفضل أن ننتظر إلى أن يرغب هو في الحديث فيسعى إلينا طلبا لذلك وإن لم يفعل، نترك له حيزا من الزمن ونسأله، ولكن دون إتباع أسلوب استفزازي أو الإصرار على حوار هو لا يرغب فيه، فاحترام الحالة النفسية للطفل ضرورية في مثل هذه الأحيان.

ابتعاد الأبناء عن مشورة الآباء والحديث إليهم هو رد فعل عادي جدا أمام عدم اكتراث الوالدين لهم، مما يجعلهم يلجؤون كما قلنا سابقا إلى طرف ثالث للحديث معه، وغالبا ما يتقرب الأطفال من أصدقاءهم أكثر وخاصة حينما يبدأ نزوحهم نحو سن العاشرة فما فوق، وليس غريبا أن يكون هذا السن هو الذي حدد كعتبة نهائية لوجوب صلاة الطفل في الإسلام.

ومما يجهله الكثير من الآباء أن بعض الأطفال هم أكثر ذكاء من أعمارهم، ويمكن الاستفادة من محاورتهم، وليس من مثل أبلغ مما حصل حينما قام أحد الصالحين لقيام الليل ورأى بجواره ابنه الصغير يرافقه فأشفق عليه من مشقة السهر وبرد الليل فقال له: «ارقد يا ابني فأمامك ليل طويل» وأجابه الطفل قائلا: فما بالك أنت قد

قمت؟ فقال: «قد طلب مني أن أقوم»، قال الطفل الصغير: «لقد حفظت فيما أنزل الله في كتابه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾، فمن هؤلاء الذين قاموا مع النبي ﷺ؟» فأجابه الأب: «إنهم أصحابه»، فقال الطفل: «فلا تحرمني من شرف صحبتك في طاعة الله»، فقال أبوه في دهشة: «يا بني أنت طفل ولم تبلغ الحلم بعد! فقال الغلام: «يا أبت إني أرى أمي وهي توقد النار تبدأ بصغار قطع الحطب لتشعل كبارها فأخشى أن يبدأ الله بنا يوم القيامة قبل الرجال إن أهملنا في طاعته»، فانتفض أبوه من خشية الله وقال: «قم يا بني فأنت أولى بالله من أبيك».

فلو لم يكن هذا الرجل الصالح حليما في حواره مع ابنه لما علم بذكائه، ولا تعلم منه ما خفي عنه.

أما الحوار المفيد فهو المناقشة البناءة والتي لا تتحول إلى صراع أو أوامر ولا ينتقص من قدر الطفل والنظر إليه على أنه لا يفقه شيئا، بل يجب أن يترك له حيزا من المسؤولية في النقاش والحوار واتخاذ القرار بعد هذا كله، حتى وإن كنا من نوجهه، فلنتركه هو يختار ما نريده أن يقوم به ونراه صائبا، فهكذا سيتقبله أكثر وسيقوم به

باقتناع، وليس هناك مانع من التودد للطفل بمناداته بأسماء يحبها كما كان يفعل الرسول ﷺ وهو ينادي زينب باسم مصغر، فعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يلاعب زينب بنت أم سلمة وهو يقول: «يا زُوينب، يازوينب مراراً».

يجب أن نعلم أن الأطفال ليسوا عبيدا ولا خدما نملكهم، وإنما هو مستقبل أمة بحالها، فحينما نحاورهم علينا أن نفهم أننا نحاور حاضرا سوف ينمو ليصبح مستقبلا...

الحوار داخل المدرسة

كما أن الحوار داخل البيت مهم ويعد من بين أساليب التربية السليمة، فالمدرسة هي بمثابة البيت الثاني للطفل، وخاصة خلال ما يسميه علماء النفس بمرحلة الطفولة الثالثة أي بين سن السادسة والثانية عشرة، حيث يكون الطفل أكثر حاجة إلى الإحساس بالاحترام والاعتراف بجهوده، ويكون مهيئا أكثر للاندماج داخل المجموعات والعيش في انسجام بداخلها مع تثمين القيم والقواعد السلوكية، وقد يكون لها تأثير أوسع وأبلغ أحيانا من تأثير الأهل، فالطفل يقضي بها ساعات طوال وهي تعد بالنسبة له نقطة بداية تعارفه على محيطه الخارجي وانفتاحه على مجتمع بات يعد من أحد مكوناته...

ولعل أهم ما قامت به المدارس المعاصرة هو إنشاء مجلس أولياء التلاميذ والطلبة، وهذه خطوة ايجابية يطلع فيها الآباء والأساتذة على مشاكل الأبناء وذلك عن طريق الحوار بين جميع الأطراف المعنية وحينما نقول جميع الأطراف فيفترض وإن لم يستطع الطفل أو المراهق ولوج اجتماعات المدرسة والآباء، ألا يقصى بصفة نهائية من الحوارات التي تنتج في حضوره، بين المدرس أو المربي وبين أولياء الأمور، فلا

يجب كما سبق وذكرنا أن نعامله على أنه مجرد شيء، يشكل الأب أو الأم والمربي قطبين يسيرانه، وإذا كان لابد من الحديث الثنائي فليكن لقاء المدرس بولي الأمر دون علم التلميذ أو الطالب، للاستفسار عن أحواله الدراسية، أو إذا لمس أي إهمال من قبل الابن، فلا ضير من أن يذهب ليتحرى الأمر بدون معرفة الابن حتى لا يحس أنه متهم مثلا أو أن ثقة والديه فيه منعدمة.

ومن الأفضل إن كان المدرس يرى وجوب الحديث مع والد التلميذ أو الطالب ألا يطلب منه إحضار ولي أمره أمام باقي التلاميذ كما يحصل عادة، وإنما أن يحاول الاتصال بوالديه بطريقة متكتمة وألا يجعل من الوالدين أداة يخوف بها الطالب، فالأساس أن نبني الثقة بين أبنائنا، وليس أن نربيهم على الخوف وانعدام المسؤولية.

كما أنه لمساعدة التلميذ على الاندماج في مجتمعه وتشجيعه على مبدأ الحوار وخاصة في السنوات الدراسية الأولى حيث تكون بالنسبة له هاته المدرسة مكانا مجهولا يتخوف من ولوجه ويكون بالنسبة له زملاء الدراسة مجرد أغراب يخشى التعامل معهم، فيمكن أن يلجأ المربي إلى نشاطات عديدة من بينها مثلا تشكيل مسرح، لتجسيد

حكايات ترويها المدرسة أو المربية، وهو لفظ اقرب إلى ما يجب أن تكون عليه هاته المهنة النبيلة من غيره، ويفضل أن تبتعد هاته الحكايات عن الرواية الخيالية البعيدة عن الواقع تماما، مثل حكاية الغول والأقزام وغيرها، فليس كل طفل يمكنه أن يفرق بين الواقع والخيال حينما يتجاوز مرحلة الطفولة المبكرة للنزوح نحو المراهقة، فكم من طفل كبر وما زال يرى أحلاما مزعجة بسبب حكايات قديمة رويت له... الألعاب الثقافية والترفيهية كذلك تساعد على إدماج الطفل في عالمه الجديد، وتؤسس للغة الحوار بينه وبين أصدقائه وبينه وبين المربي، كما أن هاته الوسائل غير التقليدية تجعل الطفل والمدرس أيضا يخرجان من حالة الضجر والسأم الذي قد يسببها روتين المدرسة الاعتيادي وبذلك يستطيع المربي أن يكون أكثر عطاء، ويزداد انتباه الطفل للشرح، بعد أن يفرغ شحنته الطفولية في أمور تعليمية وترفيهية في نفس الوقت، فهي وسيلة تنمي مهارات الطفل وتحسن مستوى تفكيره كما أنها بداية تنمية العلاقات الاجتماعية بحيث يحس الطفل أنه قريب من محيطه، وأنه مكون فعال بداخله، وليس مجرد دخيل عليه.

بل إن هناك بعض المدارس الآن تنهج أسلوبا مغايرا عن أسلوب

الطاولات والكراسي المتوالية، بل تستعمل نظام الدائرة التعليمية بالأخص في سنوات التعليم الأولى حيث يستطيع كل طفل رؤية الآخر الشيء الذي لا يتمكن منه بالأسلوب التقليدي والذي ينظم الجلوس على شكل طفل خلف الآخر، فالنظر إلى الآخر أيضا دعوة إلى الحوار والاندماج...

الحوار بين المربي وبين الطفل يجب أن يخلو من كل تحقير أو استهزاء بمشاعر الطفل، وقد يحدث ذلك مثلا حينما يخطأ التلميذ الإجابة، فيؤدي تصرف المدرس السلبي والقاسي إلى انطوائه أكثر، وربما عدم رغبته في المستقبل بالإدلاء برأيه أبدا، وهنا قد نكسر سلسلة الحوار للأبد مسببين مشاكل نفسية قد تكون ذات عواقب وخيمة على الطفل في المستقبل.

فالأستاذ أو المربي يجب أن يتحلى بالحلم وأن يبتعد عن الغضب، لأن الكثير من المدرسين ينطقون بعبارات قد تسيء إلى الطفل مثل «جاهل» أو «غبي»، وربما تشبيهه ببعض الحيوانات، وذلك نتيجة لجواب خاطئ أو فعل طفولي عفوي أو كلمة ينطق بها التلميذ لإضحاك زملائه، فإن قام المربي بالرد على فعله بما هو أقوى منه فلن يكون هناك فرق بين

معلم ومرب وبين طفل يراه جاهلا لعلم ينقصه وجاء يطلبه لديه، بل إن الجهل هنا يعمم على كلا الطرفين، فالأولى في مثل هاته الحالات أن يكتم المربي غضبه ويفكر في الأجر الذي سيفوز به حتما عند الله إن كان حليما ولينا، وحدث التلميذ برفق وأفهمه خطأه ودعاه للصواب دون أن يهديه قاموسا بذيئا يتعامل به مع أصدقائه، فكم من طفل يردد ما قاله أستاذه فقط لأنه يراه قدوة، سواء أكان ما يردده كلاما قبيحا أو جيدا.

فيجب أن ينتبه الأساتذة إلى فلتات اللسان حين الغضب، وأن يتجنبوا استعمال أي كلام سيء ومشين مهما حصل من الطالب، فهناك وسائل حوارية وردعية أيضا أنجع من هذا بكثير. فالمربي الناجح هو الحليم الذي يحسن كظم الغيظ، فقد كان ما أوصى به الرسول ﷺ رجلا جاءه يسأله أن يوصيه: «قال: أوصني، قال لا تغضب، قال: أوصني قال: لا تغضب، قال: أوصني قال: لا تغضب» ومن هنا ندرك شر الغضب وما يمكن أن ينجم عنه، فما بالك إذا كان من يتصرف بغضب هو من ننتظر أن يعلم جيلا بأكمله الحلم والرفق والزنة في الكلام والحديث والاحترام في الحوار.

كما أنه يجب التزام آداب الحديث حين الحديث عن الآخرين

أمام الطفل حتى لا يستهين هذا الأخير فيما بعد، ويختار أسلوبا مزعجا يسيء للآخرين في غيابهم، ففي ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها: قالت، «قلت للنبي ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا، تعني: قصيرة، فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته...»، هذا كان بينه وبين زوجته فما بالك بمن يغتاب الناس في حديثه أمام الناس، وخاصة أمام الأطفال...

طبعا يجب على المربي أن يصدق في حديثه وحواره مع طلبته، فلا يصح أن يخبرهم بأشياء مغلوطة أو أن يعدهم بما لا يستطيع أن يقوم به فليعلم أنه قدوة بعد الآباء، وفي سن حديثة يعتبره الطفل أهم من والديه، حيث يكون بمثابة القدوة له، فكما سبق وذكرنا فأول من يتقمص الأطفال دوره في اللعب هو الأستاذ بحيث يرى الطفل نفسه يعلم غيره ممن هم أصغر منه عمرا أو في سنه أيضا... فالصدق في الحوار والأفعال هما ما سيجعل الأطفال أيضا يصدقون مربيهم ويقومون بما يطلب منهم لأنهم سوف يحترمون شخصه ويقدرون مواقفه...

الحوار بين المربي والأطفال لا يعني الجدال المستمر، فهناك حدود يجب أن يتعلم التلاميذ الوقوف عندها، فالمعلم يبقى في مرتبة

العالم بأمور يجهلونها ويبقى التلاميذ طلبة علم يفتقرون لما سيعطيهم إياه، فالمربي الجيد هو الذي يشيع ثقافة الحوار ولكن دون تحويلها إلى جدل عقيم قد لا ينتهي ولا يفيد في شيء سوى إضاعة وقت الدرس دون أن يحس الطلبة أنهم تعلموا شيئا جديدا أو استفادوا من ساعة الدرس هاته...

والمربي الجيد هو الذي يعلم جيدا أن فوق كل ذي علم عليم، ويعرف قدر نفسه فلا يحاور لمجرد الحوار أو لمجرد إثبات علمه، وإنما خلال حواره يجب أن يعلم الأطفال أن يبحثوا بأنفسهم عن المعلومة، ليكونوا شركاء في التعليم وليس مجرد أنيات تنضح بما ملئت به، وإنما عقول تفكر وتحلل وتناقش مهما كان سن التلميذ.

كما أن التمييز الذي يحصل في بعض المدارس بين الأطفال استنادا إلى مستوى الذكاء أو إلى معطيات أخرى مثل الميل نحو طفل دون الآخر نتيجة نسب أو قرابة أو ما شابه، قد يؤثر سلبا على نفسية التلميذ الذي يحس بهذا التمييز ولا يستطيع أن يواجهه...

فمن البديهي أن تكون هناك فروق بين الطلبة على مستوى الذكاء

والمستويات، وهنا على المربي أن يراعي ذلك أثناء الدرس، فلا يحمل الطفل أو التلميذ ما لا طاقة له به، ولكن دون تمييز هذا عن ذاك بالقول أو الفعل الواضح الجلي وإن كان ينبغي له أن يشجع الناجح ولكن دون أن يبصم الآخرين بالفشل، فقد يخفق التلميذ في جواب ما ويصيب في آخر...

وخلاصة القول فإن المدرسة هي البيت الثاني للطفل أو المراهق، والصدق ثم اللين والرفق والحلم أثناء الحوار أمور ضرورية يجب أن يتحلى بها المربي، لأنه المثال الذي يحتذي به التلاميذ...

علمه بالقدوة

إذا كان الحوار لزاما وواجبا لتربية سليمة للطفل وتأسيس نفسيته مع أسس ثابتة، فإن الحوار الذي تليه متناقضات في السلوكيات لا ينفع في شيء، وإنما يجعل الطفل تائها بين الصواب والخطأ وبين ما يجب القيام به وما لا يجب عليه فعله.

القدوة تكمل الحوار، فاعجب لمن يجلس لساعات طوال يحدث ابنه عن ضرورة عدم الكذب وأنه أمر مقيت ومؤذ للغير ونهى عنه الدين إلى غير ذلك، ثم يطلب منه مثلا إذا جاءه ضيف غير مرغوب فيه بأن يفتح له الباب ويخبره أنه غير موجود في البيت!! هذا الفصام بين القول والفعل يشكل شرخا في نفسية الطفل الذي يتجلى واضحا فيما بعد في سلوكياته.

وهنا نستحضر السيرة العطرة لنبينا الكريم ﷺ إذ روى البيهقي[1] عن عبدالله بن عامر رضي الله عنه، أنه حينما كان صغيرا دعته أمه قائلة: «ها تعال أعطك»، وكان رسول الله تعالى ﷺ قاعدا في بيتنا، فسألها: «ما أردت أن

(١) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، فقيه شافعي، عرف بشيخ خرسان.

تعطيه؟»: فقالت: «أردت أن أعطيه تمراً»، فقال لها رسول الله ﷺ: «أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة» وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من قال لصبي: «هاك، ثم لم يعطه فهي كذبة».

وهناك أمثلة عديدة للكذب على الأبناء قد لا ينتبه الآباء لآثارها السلبية البالغة، مثل أن يخبروهم أنهم إن ذهبوا للنوم مبكرا، أو قاموا بواجباتهم المدرسية فسوف يأخذونهم للنزهة، وطبعا ينسى معظم الآباء هذا الأمر ولا ينتبهون إلى أن الأطفال في مثل سنهم الصغير، يتمتعون بذاكرة قوية ولا ينسون مثل هاته الوعود الزائفة وإن لم يعتبرها الآباء كذلك...ففي مثل هاته الحالة والتي قد يتعذر فيها الوفاء بالوعد من قبل الأبوين وهو أمر وارد جدا، فعلى الأقل عليهم أن يخبروا الطفل بذلك، ويطلبوا منه أن يؤجل النزهة إلى موعد لاحق، لأنهم لا يتوفرون على وقت وليس لأنهم نسوا وعدهم بالنزهة، ولا يجب طبعا أن نخبر الطفل أننا لا نمتلك الوقت للوفاء بالوعد ونجلس لنشاهد مقابلة كرة القدم مثلا، فهنا كأنك تقول له «إني لم أصدقك القول، فالوقت متوفر، ولكني لا أرغب بمرافقتك، وأريد القيام بشيء آخر هو أهم من مرافقتك»!!!

وبالحديث عن مباريات الكرة التي قد تكون دافعا لحشد جمهور من أصدقاء الأب في البيت، فغالبا ما يحملهم الحماس إلا النطق بكلمات نابية أو حتى سباب ولعان وشتائم ولا ينتبهون لوجود أطفال بالجوار قد يتخذون من كلامهم هذا قاموسا يوميا للحديث، وقد ينمون وهم يتحدثون بطريقة صفقة...

قد يبدو لكم الأمر معقدا، ويتبين لكم أنه يجب أن تحسبوا ألف حساب وأنتم تخاطبون ابنكم أو ابنتكم، ولكن لن يكون الأمر عسيرا لو اعتدتم انتم أيضا على الصدق وقول الصواب، فعن عبدالله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كُنّ فيه كان منافقاً خالصاً. ومن كانت فيه خَصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتُمِنَ خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدَر، وإذا خاصم فجر» متفق عليه. فاصدق نفسك تصدق ابنك، ولنقل: ربِّ نفسك تفلح في تنشئة برعم مستقيم...

واصدق ابنك يصدقك واكذب عليه أو أمامه يصنع لك حكايا كثيرة من نسج خياله الفتي، فحينما يقوم بخطأ ما فإنه ينفيه عن نفسه وينسبه لغيره من زملاءه أو أصدقاءه أو أخواته، وذلك لأنك علمته أن

يدافع عن نفسه بالكذب، فهو يراك تكذب باستمرار حينما يكون ذلك في مصلحتك، كأن تنسب تأخرك على مواعيدك لزحمة المواصلات وأنت في البيت وكأن تدعي الافتقار للشيء هروبا من أداء ضريبة ما أو مستحقات أجراء لديك... وهذا الكذب الدفاعي يلقن لابنك سلوكياته المستقبلية، فيمشي على نهجه هو أيضا ويستعمله ليبعد عنه شبهة أي عمل مخل وإلصاقه إما بآخر أو يجد له عذرا زائفا.

هناك أيضا ما نراه باستمرار خلال الاجتماعات العائلية، وهو عدم الانتباه لوجود الطفل والاستمرار في الحديث بالسوء عن الآخرين، فما أكثر المحافل التي تكثر فيها النميمة والغيبة، وطبعا الطفل وبعفويته فإنه غالبا ما يذهب عند فلان أو علان ليخبره بميزاته السيئة التي سمعها كأن يقول له -يا أصلع- مثلا، لأنه سمع أهله يطلقون عليه هذا اللقب في غيابه، أو أن يخبر أحد الأقارب أن أمه كانت تتحدث عنه مع أختها مثلا، وهنا رد فعل الأم يكون عقاب الطفل لأنه أفشى سرها!!! رغم أن الذي يستحق العقاب هو لسان من نطق بكلام يجرح الآخر أمامه وليس ذلك الطفل الذي يشكل مجرد وعاء نملأه فينضح بما فيه...

هناك أيضا النفاق أمام الطفل ونحن نحدث غيرنا بتملق ونزدريهم

في غيابهم، وهنا قد نحدث ازدواجية في شخصية الطفل فيتعلم كيف يبدو طيبا أمام الغير وسيئا حينما يغيبون عنه، وكم من لص وسارق، رأى في ازدواجية الأفعال والأقوال لدى أهله، مادة لينة يشكل بها مسيرة غير سوية لمستقبله، فقد قال من لا ينطق عن الهوى: «يولد الطفل على الفطرة فأبواه يمجسانه أو ينصرانه أو يهودانه» ومن هنا يثبت أننا نحن من نعلم أبناءنا القيم وننقل لهم حسن الأخلاق ولنا في رسول الله، ﷺ أسوة حسنة...

كما نرى أن كثيرا من الآباء وهم يرافقون أبناءهم في نزهة خارج البيت يلقون من زجاج سياراتهم بقنينات عصير فارغة، أو عبوات حلويات وغيرها فيقوم الطفل بدون انتباههم أو معه، برمي الأزبال في الطريق العام دون اكتراث لما يمكن أن يسببه من ضرر للغير لسبب بسيط أنه اتخذ والديه قدوة له، وأنه بات يرى ذلك أمرا عاديا، وحينما يقوم الطفل بذلك داخل البيت فقد يناله عقاب من والديه، ويطلبان منه عدم تكرار ذلك فينشأ الطفل وهو يرى أنه من واجبه احترام البيت والقيام بما يحلو له خارجه!

وهنا نذكر ما قاله نبينا الكريم ﷺ عن إماطة الأذى عن الطريق:

«إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبر الله وحمده وهلل الله وسبح الله واستغفر الله وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس، وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد الستين والثلاثمائة السلامى فانه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار» رواه مسلم

وقال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبه فأفضلها قول: لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةُ من الإيمان» حديث متفق عليه.

أدنى الإيمان إماطة الأذى عن الطريق بنزع شوكة أو زجاجة أو حتى حجرة عن طريق المارة، فإن أنت علمت قيمتها وقمت بها أمام عيني ابنك فأكيد سوف يتعلم منك ذلك، ويقوم به وأضعف الإيمان ألا تنضاف إلى قائمة من يلقون بالقاذورات على قارعة الطريق وأمام الجميع، إنك تؤجر على هذا الفعل وتؤجر أكثر على تنشئة ابنك على هاته القيم المثلى...

القدوة أمر قد يبدو صعبا للغاية إذا ما فكرنا فيه، وقد يبدو للآباء

مرعبا جدا، ولكن إن فكر كل واحد منا في تهذيب خلقه وتحسين تصرفاته وتقويمها نحو الصواب فسيكون قدوة لأبنائه دون الحاجة لتصنع ذلك.

ويثبت علم النفس الحديث أن الأسرة هي النموذج الذي يقتدي به الطفل، فسلوكيات الآباء والأقارب وكذلك المدرسين هي ركيزة بناء سلوكيات الطفل، فالنصح والإرشاد والأمر والنهي بما لا يراه الطفل أمامه ولا يلمسه في سلوك والديه ومحيطه، فكأنما هو مجرد ماء يصب في رمال الصحراء...

والطفل في سن مبكرة هو أكثر استعدادا لاستقبال السلوكيات الايجابية، وكذلك السلبية، وهنا نذكر عن سيرة النبي الكريم ﷺ: أن الحسن بن علي وابن فاطمة رضوان الله عليهم امتدت يده إلى تمرة من تمر الصدقة وهو طفل، وأراد أن يضعها في فمه، فأخذها النبي ﷺ من يده وقال: «كخ كخ، ألا تعلم أننا لا نأكل من الصدقة»، ولم يضرب يده، بل أخذها برحمة كبيرة، فهنا جمع رسولنا الكريم ﷺ بين الحوار لطفل لم يتجاوز السنتين مما سيراه الكثير من المعاصرين هدرا للوقت وأيضا بين القدوة الرحيمة، فهو يعلم طفلا أن تمر الصدقة لا يأكل منه، وهذا سيترسخ في ذهنه إلى الأبد وإن كان بعد طفلا صغيرا جدا، فنكررها إذن

مرة ثانية الأطفال أكثر قدرة على تثبيت صور ما يحدث معهم وكلمات يسمعونها في سن صغير، وكتجربة بسيطة فليحاول كل منا أن يعود بذاكرته للوراء فأكثر ما سيتذكره وبيسر كبير جدا هو ذكريات طفولة متقدمة جدا...

ويمكننا أن نلقن القدوة الحسنة عبر حكايات نرويها له عن أناس آخرين، نرويها فنجعله يكتشف أين الأخطاء فيها، ونطلب منه أن يخبرنا لو كان مكان بطل الحكاية فما الذي كان سيقوم به؟؟

وهذا الأمر مستحب وبشدة أيضا في المدرسة، ففي المقررات التعليمية وجب أن نجعل الطفل يتعلم من حكايا نرويها له ونجعله يتفاعل معها ويشكلها ويفهم العبرة منها أيضا، كما أن المدرسين يأتون في المقام الثاني لتربية النشء بعد الأسرة، فوجب أن يهتم المربون أيضا بسلوكياتهم، فالمعروف أن الطفل في سن حديثة يرى في معلمه أو معلمته المثل الأعلى، والدليل أن أول دور يلعبه الطفل الصغير قبل دور الشرطي حينما يبدأ في الاعتماد على عضلاته هو دور المدرس، فنراهم دائما يكتبون على ألواح وينظمون أصدقاءهم في صفوف على أنهم تلاميذ، ومن هنا نذكر المربي بدوره المهم الذي يلعبه في تربية

جيل بأكمله، فلا يجوز مثلا ترك التلاميذ داخل الفصل للحديث مع زميل آخر أثناء العمل، فهنا كأننا نقول لهم إن حديثنا عن المسؤولية هو مجرد كلام والأمثلة عديدة ولا حصر لها، وخلاصة القول أن المربي مثل الأب تماما عليه أن يراعي ضميره في عمله لأنه قد يهيئ لبذرة طيبة، وقد تكون سامة لمجتمع بحاله.

وبما أن المربي يشكل قدوة كما ذكرنا فلا بأس من أن يعلم الأطفال كيفية الصلاة بتطبيقها أمامهم والكف عن الدرس حينما ينادى للصلاة ودعوتهم لمشاركته صلاة الجماعة.

وكما تكون القدوة في الأقوال والأفعال فتكون في حسن المظهر ونظافة الهندام، فالمربي يجب أن ينتبه لمظهره أمام طلبته من حسن الهندام ونظافته بما يتماشى مع المعقول طبعا، فما زاد على حده انقلب إلى ضده كما هو معلوم...

إذن اتفاق الأقوال والأفعال والصدق في التصرفات هو ما يشكل القدوة الحسنة التي يهتدي بها الطفل وهو في أول مراحله العمرية حيث تتشكل نفسيته، ويبدأ اندماجه في مجتمعه ومحيطه

وهو ما يجعل الطفل لا يفقد الثقة في والديه ومربيه وقد قال جل وعلا في ذلك في سورة الصف: ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ وقال كذلك في سورة البقرة: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾.

هناك حد فاصل للقيم فلا يوجد كذب أبيض وكذب أسود أو سلوك سيئ له تبرير حسب ظروفه، بل الأجدى حينما يخطئ الكبير أن يعتذر للصغير عوض أن يجد تبريرات لما قام به فيجعله يقوم بنفس الأمر...

لا يوجد طفل كسول

أحيانا كثيرة ينسب الكسل والغباء لطفل ما نتيجة عدم نيله لعلامات جيدة في مادة معينة أو في امتحان ما، أو نتيجة أجوبته الخاطئة المتكررة، ويبصم هذا اللقب حياة الطفل إلى الأبد، وخاصة حينما يميل بعض المدرسين نحو إهماله وعدم الاكتراث له، ويطلبون منه الجلوس في آخر الصف ولا يوجهون له أية أسئلة، إذ يرسخ لديهم الاعتقاد أنه طفل كسول وغبي، وأن أية محاولات لجعله ينشط داخل القسم لن تجعل منه تلميذا متفوقا، فيختارون تركه في أحد المقاعد المدرسية وكأنه مجرد شيء لا دور له في الصف سوى أن يأتي ويخرج في الوقت المخصص له، وهناك آخرون يرون في العقاب وسيلة تربوية لهذا النوع من التلاميذ، وهم أيضا يلجئون لإهماله بعد فترة زمنية معينة.

والحقيقة أنه لا يوجد طفل كسول وإنما يوجد طفل ذكي وطفل أقل منه ذكاء، أو طفل ذكي وآخر أذكى منه، ولكنه لا يعبر عن نفسه نتيجة موانع كثيرة يعاني منها لوحده ولا يفقهها الآخرون.

قد يكون التلميذ أو الطفل الذي نراه كسولا وغبيا أذكى من غيره

بكثير، وقد يمنعه من المشاركة داخل القسم خجله مثلا من سخرية الآخرين، أو خوفه من نيل العقاب أو تلعثمه في الكلام، وأحيانا كثيرة عدم اندماجه في الصف، إما لأن الآخرين يضحكون من شكله أو لباسه أو فقره وغير ذلك... وفي حالة المراهقين، نجد الكثير ممن يقال عنهم أغبياء وخاملين، إنما ينجم كسلهم عن اختيارهم لتوجيه دراسي غير صحيح، وهنا يأتي دور الموجهين التربويين في توجيه الطالب التوجيه الصحيح، وقبله أساتذته بحكم قربهم له أثناء السنة الدراسية، وأيضا على الآباء ألا يفرضوا آراءهم على أبنائهم فيما يخص توجهاتهم الدراسية، فالابن ليس مرآة ينظر فيها الأب إلى نفسه وكذلك الأم، ولا هو أداة يبلغون عبرها أهدافا لم يصلوها فيسقطونها عليه هو وإنما هو كائن مستقل قد تكون له نفس ميول الآباء، وقد تتغير ميوله عنهم، وفي كلتا الحالتين علينا أن نساعده في الاختيار دون أن نفرض عليه رأينا.

في بعض البلدان تمنح أهمية كبرى للتلميذ الذي يقال عنه في بلدان أخرى إنه غبي، بل ويعاد توجيه طلبة نحو شعب مغايرة في حالة دلت دراسة حالتهم على أن ميلهم نحو مواد علمية مثلا أكبر من ميلهم لمواد أدبية، والنتيجة أن هذا الطالب الكسول يتحول إلى إنسان ناجح

وذكي وفي واقع الأمر لقد كان ذكيا منذ البداية وإنما لم يكن ناجحا لأن عوامل النجاح لم تكن متوفرة لديه وحينما توفرت ظهر تفوقه...

كما أن هناك طفل ذكي جدا وطفل ذكي نسبيا حسب المقاييس المتعارف لقياس الذكاء عليها، أي «QI» ولكننا نجد الثاني أنجح بكثير من الأول وعلاماته مرتفعة، وهذا قد يعود لأنه يحسن استثمار إمكانياته المتوسطة بطريقة مثلى، أما الأول فيعتمد على الذكاء العقلي فحسب، وهذا النوع يكون ملتزما بدروسه، وله منظومات يمشي عليها ولذلك فإنه لا يبدع بذكائه، لأنه لا يتوفر على مساحة الخيال التي يتوفر عليها الطفل الذي قيل انه أقل منه ذكاء...

فكما هناك الذكاء الذهني فهناك الذكاء القلبي، وهو حسن تدبير الذكاء الذهني بالوجدان والعاطفة -ولعل هذا ما جعل دراسات كثيرة تظهر أن أنجع الحلول لمختلف المشاكل تأتي من تفكير المرأة، لأنها الأقدر على استعمال «الذكاءين» معا عكس الرجل- فالطفل الناجح يعتمد ذكاء ذهنيا ووجدانيا، وهنا يمكن ذكر قول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في سورة الحج: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

وقد يكون سبب كسل الطفل ليس غباء ولا نقصا في الذكاء، وإنما قد يعود خموله إلى الخجل وهنا وجب معالجة الأسباب لإفساح المجال أمام الطفل ليعبر عن نفسه وعن ذكائه، وقد يكون ذلك ناجمًا عن خوف من العقاب، وهنا أيضا وصف الطفل بالغباء لن يكون حلا يجعله يعمل وإنما السعي إلى نيل ثقته سيجعله بالتأكيد من المتفوقين، وهناك أطفال أذكياء جدا ولكن لديهم مشكل في النطق، هؤلاء على آباءهم ومدرسيهم أن يحثوهم على القراءة فهي ستساعدهم على تحسين النطق وإبراز مهاراتهم للسطح، وطبعا القراءة يجب أن تراعي مستواهم الدراسي وأيضا عمرهم فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

كما أن النشاطات المدرسية الموازية، تمكن المربين من اكتشاف مواهب عديدة لدى من يعتبرون أغبياء ومتقاعسين داخل الفصل الدراسي، وقد يظهر لنا ذكاء أكبر بكثير مما كنا نتوقعه بحيث نرى سرعة الحركات والانتباه إلى أدق التفاصيل، أشياء لم نكن نلاحظها داخل الفصل، ولكنها كلها عوامل تساعد على إظهار الطاقات الكامنة داخل الطفل، وتساعدنا على أن نجعل منه تلميذا أو طالبا متفوقا فيما بعد.

وقد يمارس بعض الآباء أو المربين أسلوب الاضطهاد والتجريح على الأطفال نتيجة تحصيل علمي متدن، وقد يزيد هذا من سوء تركيزهم وعدم رغبتهم في الدراسة.

وفي الكثير من الأحيان تكون النتائج الهزيلة للطفل نتيجة مشكل في التركيز الناجم عن مشكل بصري أو سمعي ويرجأ ذلك لغباء الطفل في حين أنه يعاني في صمت من أمر عضوي، وهنا يجب على الآباء خاصة أن يستشيروا طبيبا مختصا لكي يستعلموا عن قدرات أبنائهم البصرية والسمعية وكذلك قدراتهم الحركية أو إصابتهم بأحد الحالات المرضية مثل «الديسليكسيا» فالطفل حينما يكتب حروفا متباعدة أو مقلوبة في غالب الأمر، لا يعني هذا أنه غبي ولكنه طفل «دسيسليكسي» يملك ذكاء قويا، ويبدو ذلك من خلال محاورته والحديث معه، ولكنه لا يستطيع نقل قدراته على الورق، ولديه ارتباك من اليمين لليسار فغالبا ما يكتب كتابات مقلوبة كما أنه أثناء القراءة قد يضيع المكان الذي وصل إليه إذا توقف عن القراءة قليلا فقط، ولكن مهاراته اليدوية تكون كبيرة جدا وأيضا ذكاؤه الخيالي يكون أوسع بكثير، فعوض نعت الطفل بالغباء والكسل فيجب أن نلتفت للمهارات التي يتوفر عليها، ولا نجعله

يعتقد أنه طفل لا مبال ولا أمل يرجى منه، كما أن الضغط عليه ليتعلم لا يجدي في شيء أبدا، فقد يتحسن تدريجيا في اكتساب مهارات جديدة وفي تحسين خطه ونطقه ولكنه عصبيا لن يكون أبدا كما أي طفل عاد، لذلك الأجدر بنا أن نبحث عن نقط قوته لنجعله ينمي قدراته عوض أن نطلب منه المستحيل فغالبا «الديليكسيا» هو أمر وراثي ومستمر، وإن كان ممكنًا أن يتحسن صاحبه... وما هذا سوى أمر من بين الأمور التي قد تمنع الطفل من التفوق دراسيا، والتي تنسب للأسف للغباء والكسل، ولا نبحث عن كنهها الحقيقي.

وقد يكون التحصيل العلمي السلبي للطفل نتيجة جو متوتر داخل الأسرة، وهنا لم نلوم الطفل على شيء نقوم به نحن؟؟ بل الأجدر أن نبحث عن استقرار أسري يمنح للطفل استقرارا نفسيا بالأول قبل أن نطلب منه النجاح والتفوق...

وقد قال أنس رضي الله عنه في ذلك: «لقد عشت مع الرسول ١٠ سنوات لم يقل لي: افعل هذا، أو لم فعلت هذا»، وهذا لا يدل على أن أنسا وهو طفل صغير لم يخطئ قط، ولكن عوض أن يصفه الرسول الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام بالغباء والاستهتار فقد كان يعلمه بالقدوة

ويرحم ضعفه.

فنأمل أن نقتدي بخير الأنام، وألا نرى ذات المشهد يتكرر دائما من قبل أباء يفضلون ابنا عن الآخر ظنا منهم انه أكثر ذكاء أو من قبل معلمين يتفاعلون أكثر مع الطلبة النشيطين ويصفونهم بالذكاء بينما يهملون الأطفال الذين يرون فيهم خمولا وكسلا ويبصمونهم بالغباء. فخمول الطفل لا يعني أبدا أنه كسول أو غبي، بل في الحقيقة لا يوجد طفل كسول على الإطلاق، وإنما هناك طفل صاعد استقلالي وقوي، وطفل هابط يحتاج إلى مساعدة ليكون ناجحا أيضا وربما يكون مستقبلا أذكى من غيره في الفصل.

الأطفال الموهوبون

بين كلمة Intelligentia التي عنى بها الفيلسوف «شيرون»[١] كلمة «نحن» وتغييرها إلى Intelligence، ونسبها إلى الذهن أو العقل أو الحكمة وترجمتها عربيا باسم ذكاء، نجد مفاهيم كثيرة للذكاء تغيرت حسب العصور، فمن قبل كان العلماء وحتى عصر قريب جدا، يعتبرون الذكاء ملكات، ونظرية الملكات تعني أن العقل يتألف من عدد من القوى المستقلة التي تؤدي إلى نشوء نشطات معينة، مثل الإرادة أو الانتباه إلى غير ذلك، ثم تغير هذا المفهوم لمفهوم فراسة الدماغ أو القدرة الموحدة، والمفهوم الحديث للذكاء والذي يقسمه إلى شطرين، جانب معرفي وآخر وجداني فهو ما أتى به الفيلسوف الانجليزي «هربرت سبنسر»[٢]، ويقصد بالجانب المعرفي كل العمليات التحليلية المكتسبة التي تساعد الإنسان على التكيف مع المتغيرات الجديدة في بيئته، أما الجانب الوجداني فهو الذكاء الفطري الذي يصقل بالمعرفة، وهو أيضا

(١) شيرون: فيلسوف روماني.

(٢) هربرت سبنسر: فيلسوف بريطاني «١٨٢٠-١٩٠٣».

ما اعتمده علم النفس المعرفي الذي يفترض أن التفكير هو سيرورة في معالجة المعلومات لذا وجب استثمار المعارف ومعالجة المعلومات في الذاكرة واللغة....

وهذا التفسير هو الأقرب إلى قوله تعالى في سورة الحج الآية ٤٦: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ وقوله تعالى في سورة الحج أيضا: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ ومن هنا نتبين أنه فعلا هناك ذكاء وجداني أو ما نسميه بالبصيرة، ذكاء فطري موروث يصقل بالمعرفة، لذلك نرجح أن هذا التفسير الأخير هو الأقرب للصواب والله أعلم.

وإن كان تعريف الذكاء ما زال مثار نقاش إلى وقتنا الراهن، وقد أصبح الآن هاجس قياس الذكاء يسكن معظم قادة حركة القياس العقلي ومقياس الذكاء أو ما نسميه ب «QI»[١]...

وبما أننا نتحدث عن التربية، فما يهمنا هنا هم الأطفال المبدعون

---

(١) نظرية المعامل العقلي نتيجة QI، est le résultat d'un test psychométrique معيار بسيكومتري QUOTE.

أو الذين يمتلكون قدرات عقلية أعلى نسبيا من أصدقائهم، ومهارات كبيرة والعديد من العلماء المعاصرين باتوا يحثون المربين والآباء على حد سواء على محاولة الاكتشاف المبكر لمواهب وقدرات الأطفال.

ويعرف الأخصائيون الأطفال الموهوبين على أنهم أذكياء أو عباقرة أو نوابغ، وهي في حد ذاتها عبارات ثناء وإطراء على ما يقيمون به ويبهرون به الكبار.

وتفيد بعض الدراسات أن القدرة البدنية للطفل الموهوب تكون قوية مقارنة مع الأطفال العاديين، وهنا نرى تمييزا بين الطفلين، فهناك طفل خارق وهناك طفل عادي وهذا لا يتناسب مع تعاليم الدين الذي أظهر لنا أن الذكاء الوجداني يولد مع الشخص ويصقل بالذكاء المعرفي وبالتربية، وقد تكون نسبة ذكاء طفل أعلى من آخر -وهذه أمور وراثية في الكثير من الأحيان- ولكن يمكن لهذا الأخير أن يضاهيه في النجاح إن وجد البيئة السليمة لذلك، كما يمكن للأول أن يتحول إلى طفل فاشل، وذلك أيضا حسب البيئة التي نشأ فيها، فالزيادة أو النقصان هي وليدة المحيط العام...

وقد لا يتوفر الطفل النابغة على قدرات عالية في جميع المواد الدراسية وإنما قد يركز على مادة دون أخرى، وقد يكون فاشلا في مواد أخرى أو في أشياء يراها الآخرون بسيطة، ومن هنا، نرى أنه من الأجدر أن نتحدث عن الموهبة بدل أن نقسم الأطفال إلى خارقين وعاديين... لأن الطفل العادي قد يكون خارقا في مجال، والخارق قد يفشل فيما يراه الآخرون سهلا وفي المتناول...

وقد عرف سبيرمان Spearman[١] التفكير الإبداعي للطفل بأنه القدرة على إدراك العلاقة بين شيئين بطريقة ما ينبثق عنها ظهور شيء ثالث مخالف لشكليهما الأولين.

وتذهب مدرسة الجشتالت Gestalt[٢] في علم النفس إلى أن المبدع الموهوب، هو ذلك الفرد القادر على إعادة دمج المعارف والأفكار، بشكل جديد...

---

(١) شارل سبيرمان- ١٨٦٣-١٩٤٥-، أخصائي نفسي انجليزي، عرف بعمله في مجال علم الإحصاء وتحليل الذكاء

(٢) جشتالت: هي كلمة ألمانية تعني تنظيم وتأسست نظرية الجشتالت على يد «ماكس فرتهيمر»، وتدخل ضمن المدرسة المعرفية وهي نظرية عميقة تنطلق من كون الكل له أهميته على الأجزاء وتعتمد نظرية الاستبصار أي الفهم والإدراك...

فهذا يعرف الطفل الذكي نسبة لفكره بحيث أنه يتحدث عن التركيز على شيئين ليخرج شيئا ثالثا والثاني يركز على نتيجة الذكاء أي الإبداع...

أما فيما جاء به بعض الأخصائيين ومن بينهم «عثمان نجاتي[1]» بأن فئة العباقرة هم ذوو الذكاء المرتفع التي تصل نسبتهم إلى ١٤٥ درجة، ويمثلون نسبة واحد في الألف في الإحصائيات السكانية العامة، أما باقي الأذكياء والذين تتراوح نسبة ذكائهم بين ١٣٠ و١٤٥ درجة فهم يمثلون حوالي ٢٪ عالميا ويتميزون بالتفوق في التحصيل الدراسي!!!

فقد اعترض على هذا الطرح العديد من الخبراء، فكيف لنا أن نعلم أنهم يشكلون نسبة ١ بالمائة أو ٢ بالمائة؟ وفي معظم بلداننا العربية، لا نهتم بعد بإبراز مواهب الأطفال، ولا نميز بين من لديه مواهب وإبداع وبين غيره، كما أن الأبحاث والدلائل لا تدل على أن المتفوقين في التحصيل العلمي فقط هم الأكثر ذكاء، بل إن التاريخ يحدثنا عن

(١) عثمان نجاتي- مفكر وأخصائي نفسي عربي من مؤلفاته: الإدراك الحسي عند ابن سينا- الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين- التعايش مع الخوف وغيرها.

عباقرة ومخترعين لم يتفوقوا أبدا في دراساتهم بل وطردوا من مدارسهم، ومع ذلك اخترعوا وأبدعوا، فمن الجلي إذن أن توقفنا عند علامات الامتحانات وحصر النجاح والتفوق في مدى ارتفاعها هو ما جعلنا نمر قرب العديد من المواهب دون أن نعرف أنه كان يمكننا أن نصنع منها عقولا نيرة ومبدعة، وهو ما جعلنا لا نمنح الفرصة لأشخاص يمكنهم أن يغيروا الكثير... في المقابل كم من شخص نجح في التحصيل العلمي وفقا لمعطيات ورقية، ولم يستطع أن يتميز في حياته العملية أبدا، وهذا لا يعني أننا ندعو إلى عدم ضرورة التحصيل العلمي بل نشدد عليه، ولكن مع مرافقته بفراسة الأخصائيين التربويين من مدرسين وموجهين وغيرهم وكذلك الآباء، لكي لا نقف فقط عند نقط ضعف أطفالنا وإنما نبحث عن نقط تفوقهم والأشياء التي يحبون الإبداع فيها...

فـ «توماس اديسون»[1] وصف بالبلادة والتخلف العقلي وطرد من المدرسة، ولكنه استمر يبدع إلى أن صار أحد أكبر المخترعين في العالم، فهو من اخترع المصباح والفونوغراف وغيرها من الاختراعات

(١) توماس ألفا إديسون، مخترع أمريكي «١٨٤٧-١٩٣١».

التي أفادت العالم وما زالت... وقد كان تحصيله العلمي سيئاً للغاية... ولولا مساعدة والدته واقتناعها بأنه فعلا يمكنه القيام بشيء ما، ربما كنا سننتظر لسنين أخرى حتى نتعرف على شكل المصباح...

أحيانا يكون التحصيل العلمي السيئ نتيجة عدم فهم الطفل وعدم تركيزه وربما شغبه، ولكن لا يمكننا أن نجزم أبدا أن هناك طفلاً يحب الكسل أو يريد أن يكون غبيا، فأي طفل ما بين الطفولة الثانية والثالثة يحس بغريزية بالرغبة في المنافسة والتفوق على غيره من الزملاء، بل نجد ذلك حتى لدى البالغين وهي طبيعة بشرية صرفة، وإن كانت حدتها أكثر لدى الأطفال لأنهم لا يتمكنون من عقلنة الأشياء التي يكتسبها الكبار بفضل الخبرة والسن، ففي الكثير من الأحيان حينما نرى طفلا لا يتمتع بقدرات عالية ولا بعلامات جيدة فإننا نصفه بالغباء وكفى... وقد تكون عدم مشاركته داخل الفصل والتزامه الصمت وعدم رغبته في الأجوبة على الأسئلة المطروحة لها دافع ثان لا علاقة له بالغباء أبدا...

فالقليل جدا من المدرسين من يفكرون بمحاولة دمج هذا الطفل الصامت، في حين أن اعتزاله الغير ونتائجه المتدنية قد تكون نتيجة موهبة!!! وقد يستغرب البعض هذا الحديث، ولكن يمكننا أن نشرح

ذلك بكون ذلك الطفل الموهوب، والذي يفكر بسرعة أكبر من الآخرين، يحس بالملل والضجر وهو ينتظر إجابة الآخرين على أسئلة تبدو له سهلة جدا، وغالبا ما نجد هذا الطفل يترك درسه ولا يراجعه ولكنه يحمل كتب أقربائه الأكبر سنا، وإذا سئل في مناهجها يجيب وبتفوق!

لقد عمدت بعض البلدان الغربية إلى دراسة مثل هاته الحالات، ووجدت كحل لهؤلاء أن يدمجوا في الفصول المتقدمة حتى إن الطفل يستطيع أن يصل إلى الجامعة بفضل قدراته في سن صغير جدا، ولكن تبين أن هذا الحل ليس حلا ناجحا أبدا، فالطفل يظل طفلا، وجلوسه مع من هم ليسوا بسنه لفترات طويلة، وحرمانه من اللعب الضروري في عمره هذا، لتفريغ شحناته، ومن العيش حياة مرحلية عادية قد يهدد سلامة توازنه النفسي وبالتالي قد يتمرد على هذا الوضع ويعود للانطوائية أو يفشل بعد سنين نجاح قليلة لأنه يستنفذ طاقته العقلية والجسمانية سريعا جدا... وربما الحل الأنجع والذي لجأت إليه دولة عربية و«ليست غربية» وهي جمهورية مصر العربية في إحدى الحالات، هو أن يستمر الطفل في الدراسة مع أقرانه وفي نفس الوقت نمنحه فرصة للإبداع في موهبته، فهكذا ينمو نمو طفل طبيعي وفي نفس الوقت يحسن بالدرس

والابتكار موهبته ويمشي على الوتيرة التي تناسب عقله وتفكيره...

وهذا الطفل وهو محمود وائل، نبغ في مجال أنظمة الحاسوب واعترف في برنامج تلفزيوني أنه لا يحب العلوم إطلاقا، فهنا يتبين لنا عمليا صحة ما جئنا به من قبل، فلو أن مدرس العلوم وصف محمود وائل بالغباء لكانت نهاية رحلته... وربما لاستمر وحده مثل ما فعل توماس إديسون...وهنا أيضا نتبين صحة أن لكل طفل مجال إبداع خاص قد لا يعفيه من الفشل في مجالات أخرى، ولذلك علينا البحث في مجالات الإبداع لا أن نبصم بالغباء والتخلف كل من فشل في مادة معينة أو صمت ولم يشارك داخل الفصل الدراسي...

كما أنه يتبين لنا صحة أن الطفل يجب أن يعيش سنه وهذا ما حصل مع محمود وائل وبنفس الوقت، فهو يعمل في مجال إبداعه في سن مبكر جدا، وهنا لا يتعارض الأمران، فالطفل يعيش سنه ويتمتع بما يتمتع به غيره من لعب ومرح وغير ذلك، وفي نفس الوقت منحت له الفرصة لمتابعة موهبته العلمية.

وإن كان العلم الحديث قد بدأ في التفكير بأهمية البحث عن الإبداع والخلق والنبوغ لدى الطفل، وذلك بعد إخفاقات تربوية عديدة

كادت تصيب العالم بفشل علمي جراء اعتبار بعض الموهوبين متخلفين عقليا، لأن المدرس يرى فقط الصورة التي أمامه، ولا يبحث عن أبعادها، مثلما حصل مع «توماس أديسون» بطرده من المدرسة، لأنه اعتبر غبيا لصعوبات في مادة الرياضيات و«انشتاين»[١]، صاحب نظرية النسبية بسبب صعوبات في القراءة وغيرهم كثر، إلا أنه وقبل هذه التواريخ بكثير وفي عهد النبي الكريم ﷺ فقد كان هناك أطفال نبغوا في ميادين عديدة ومنحت لهم الفرصة لإبداء ذلك ومن بينهم علي ابن أبي طالب، الذي أسلم وهو في العاشرة واشتهر بحكمته وشجاعته، وكان رفيقا للنبي ﷺ رغم صغر سنه، وكان زيد بن ثابت[٢] من كتاب الوحي الذين كتبوا القران الكريم لرسول الله ﷺ وهو بعد صبيا صغيرا وكان أنس بن مالك[٣] خادم النبي ﷺ بل وكاتم أسراره أيضا وأكثر الناس حفظا لسيرته النبوية وهو بعد في سن العاشرة، وكان الرسول ﷺ يشجع المواهب الصغيرة، ويوجهها للطريق الصحيح فنشأ منهم خلفاء وقادة وعلماء...

---

(١) ألبرت أينشتاين صاحب نظرية النسبية – عالم فيزياء ألماني «١٨٧٩-١٩٥٥».

(٢) زيد بن ثابت بن الضحّاك الأنصاري من المدينة النبوية، يوم دخل الرسول ﷺ إلى المدينة، كان يتيماً وسنه لا يتجاوز إحدى عشرة سنة، وأسلم مع أهله وباركه الرسول محمد بالدعاء.

(٣) أنس بن مالك بن النّضر الخزرجي الأنصاري هو صحابي جليل، ولد بالمدينة، وأسلم صغيراً وكناه الرسول محمد ﷺ بأبي حمزة. خدم الرسول ﷺ في بيته وهو ابن ١٠ سنين.

عنف الأبناء عذاب للآباء

الطفل الديكتاتور أو المستبد Tyrannical children

العديد من الآباء يسعدون بالحركة الزائدة لأطفالهم، فهي بالنسبة لهم دليل سلامتهم الجسدية وقدراتهم الذهنية وضعف الحركة هو ما يؤرق عادة الآباء، وما يجعلهم يخشون إصابة طفلهم بمرض ما أو عاهة لا يعرفونها، وهذا صحيح إلى نسبة كبيرة، فالنشاط الحركي الزائد يكون عادة دليلاً على نشاط الطفل، وهو أمر بديهي في السنوات الأولى من الطفولة بحيث أن الطفل يكتشف حركات جديدة ويحاول تكرارها مثل المشي مثلا وقبلها حينما يبدأ بالحبو وهو يفرح بقدرته الجديدة على بلوغ الأشياء، فتزداد حركته رغبة منه في إبراز مهاراته واكتشاف محيطه، كما أن كثرة الحركة داخل الفصل الدراسي قد تدل على ذكاء الطفل فهو يحاول أن يظهر مهاراته الذهنية وقدرته على الإجابة، فتراه يتحرك بوفرة، ويحاول أن يزيد عدد ايجابياته الصحيحة، غير أنها أمر طبيعي إلى حد كبير في سن الطفولة، فهي شحنة عادية يتوفر عليها الطفل ويريد بفطرة التخلص منها، وقلة الحركة في مثل هذه السن هو ما يعد أمرا غير طبيعي ويجعل الآباء يتوجسون ويخافون، ولكن ما لا ينتبه إليه الكثير من الآباء هو أن أي شيء يزيد عن حده ينقلب إلى ضده، فالفرح بحركة الأطفال

الزائدة قد ينقلب إلى أمر غير عاد ومثير للأعصاب إن زاد على حده.

ويعرف الأخصائيون النشاط الحركي الزائد على أنه حركات جسمية تفوق الحد الطبيعي أو المقبول، هو مجموعة من اضطرابات سلوكية تنشأ نتيجة أسباب نفسية أو عضوية وتكون مصحوبة بضعف التركيز وقلق مستمر مع اضطراب في الانتباه الناجم طبعا عن فرط الحركة والنشاط الزائد الذي يدهور حالة التركيز والانتباه، فالحركة المفرطة هي دليل الإصابة باضطراب فرط الحركة مع فقدان القدرة على التركيز، فغالبية الأطفال الذين يرتادون العيادات النفسية من المصابين بفرط الحركة المرفقة بضعف التركيز وبالتالي فشل دراسي...

في الكثير من الأحيان تكون زيادة الحركة دليل عدم رضا الطفل عن أمر ما، أو كرد فعل لشيء آخر، مثل اكتئابه بسبب عدم استقرار أسري يعيشه بين والديه مثلا، أو مشاكل دراسية سواء أكان فشلا أو عدم القدرة على متابعة سير الدرس أو بالعكس إحساسه برتابة الدرس وبسهولته بالنسبة لفهمه، وهذا في حالة الأطفال الموهوبين، فكما ذكرنا سابقا، قد يكون إحساسهم أن الدرس لا يوافق قدراتهم العقلية أمرا يؤدي إلى فشل دراسي ورد فعل عنيف أو بالعكس انطوائية وانعزال عن الآخرين.

عادة كثرة الحركة التي تعرف أسبابها سهل على الآباء والمدرسين معالجتها، وذلك بمحاولة إنهاء هاته المسببات إن كانت نفسية أو محاولة الحد منها إن كانت عضوية، فلا يجد الطفل نفسه في حاجة للتعبير عن ضيقه بهاته الطريقة، وإنما يتحول إلى طفل بحركة عادية أو متوازنة على الأقل.

وفي الغالب ما يتحول فرط الحركة لدى هؤلاء إلى عنف اتجاه آبائهم ومدرسيهم وزملائهم وحتى الأشياء التي بحوزتهم، فنجدهم يلقون بها هنا وهناك، ويميلون لتكسيرها أيضا ولا يتمون واجباتهم الدراسية إلا بعد جهد بالغ من قبل الآباء بحيث أنه لا يستطيع التركيز لفترة طويلة ويجابه ذلك بالرفض والصراخ والعنف وكأنه يريد أن يخبرنا أنه أيضا يعاني مثلنا تماما، وهذا السلوك قد يكون في بعض الحالات بسب مشكل جيني، مثل مرض التوحد«autism»[1] مثلا والذي يصيب الذكور أكثر من الإناث وقد يكون

(١) مرض التوحد- Autism-: عرف لأول مرة سنة ١٩٤٣ من قبل ليو كانير-- Léo Kanner الذي عزله عن ذهان الأطفال-psychose-، ليحدد كمرض كامل والآن لم يعد التوحد مرضا وإنما من الأعراض، أي مجموعة من الإشارات الإكلينيكية التي يمكن أن تكون نتيجة أسباب مرضية عديدة أو ميكانيزمات مرضية مختلفة، وحسب المرجع التشخيصي والإحصائي للاختلالات النفسية -D.S.M. IV-، فإن مرض التوحد هو ارتباك يجتاح التطور ويتميز بتحولات خطيرة في المجالات الثلاث:- شذوذ أو تشوه لغوي، أو شفاهي- اضطراب التفاعل داخل المجتمع-نقط اهتمامات محصورة.

الطفل مع ضعف استيعابه للمعلومات كثير الحركة وعنيفا، وتمنح له أدوية تخفف من توتره وقلقه وفرط نشاطه، ولكنها لا تعالج، إذ علينا مرافقتها بعلاج نفسي وسلوكي خاص حتى يتمكن الطفل المصاب بالتوحد من التعايش مع المجتمع وجعله فردا مرغوبا وفعالا فيه، ونجد أيضا بعض الأطفال المصابين بأحادية الصبغيات «monosomie»[١] وغيرها من الأمراض الجينية التي تؤدي إلى هذا السلوك... وقد يكون فرط الحركة مجرد مشكل سلوكي، كرد فعل على حياة غير مستقرة، وفي كلتا الحالتين فإن المتابعة النفسية ومحاولة استيعاب السلوك والبحث عن مسبباته ومحاولة معالجتها يكون حلا أنجع من التوتر والقلق والعنف المضاد الذي يكون رد فعل عكسي من قبل الأباء الذين يعانون من أطفالهم.

فالطفل أو المراهق العنيف ومفرط الحركة، عادة شخص يجنح للعنف الجسدي أو الكلامي والذي يوجهه خاصة لوالديه ثم محيطه، يسميه البعض بالطفل الديكتاتور لأنه يحاول إملاء شروطه، ويلجأ في ذلك للابتزاز ويكون عنيفا وصعب المراس بشكل كبير ومتجاوز وغير مقبول،

(١) أحادية الصبغيات أو monosomie هي حالة خلية لا تتوفر على العدد الطبيعي من الصبغيات، والعادي عند عدد من الكائنات الحية منها الطيور والإنسان هو أن يكون عدد الصبغيات في الخلية مزدوجا، ولكن في حالة أحادية الصبغيات ينقص صبغي.

مما يجعل بعض الآباء يعيدون ترتيب حياتهم وفقا لمتطلباته ويرضخون لرغباته كما أن هناك نوعًا آخر من الجور السلوكي أو السلوك الشاذ وهو ما نسميه بالطفل الملك «l'enfant roi- His Majesty the Baby»[1] وهذا الطفل لا يلجأ للعنف الجسدي، وإنما لا يعترف بالجميل ويطلب دائما المزيد وهو دائم الشعور بعدم الرضا، ولا يتحمل الحرمان.

وهذا السلوك العنيف أو الابتزازي المتسلط قد لا يكون له كما سبق وذكرنا سبُب عضويٌ، وإنما قد يكون نتيجة حياة أسرية متوترة بسبب اضطراب العلاقات بين الوالدين مثلا، والسلوك العنيف من قبل أحدهم اتجاه الآخر أو الاثنين معا، فالمشاحنات الكلامية أو الحركية، تخلق في البيت جوا من التوتر الذي يؤثر سلبا على تربية الأبناء. وعند انفصال الوالدين أيضا قد يحدث مثلا أن يحس الابن بازدراء الأم للأب، والتقليل من شأنه أمام الأطفال، مما يرسم أمامه معالم لأب غير مرغوب فيه ويجعله غير ذي قيمة أمامه، وتبقى بالنسبة له الأم تمثل الطرفين الأم والأب معا، ويجد نفسه يتقاسم وإياها الحقد والكره لهذا الأب، ونجد أن

(١) His Majesty the Baby: نجد هذه العبارة والتي تدل على الطفل الملك في نص فرويد ١٩١٤ كمدخل لتعريف النرجسية...

الطفل يكثر من معاملته العنيفة لوالده، لأنه لا يريد أن يكون مثله، لأنه يحتقر ضعفه، ولا يريد أن يرى نفسه في هوية الأب الفاشل، فيحول ذلك إلى عنف وفي بعض الأحيان تأتي ردة فعل الطفل عكسية فيتحول إلى العنف اتجاه والدته كنوع من الانتقام لوالده المنزوع من وظيفته كأب...

كما أن غياب الأب قد يحول هذا الطفل الوديع إلى طفل عنيف، لأن الأب لا يشكل فقط الحنان والعطف والرعاية للطفل والمراهق، ولكنه يمثل أيضا مركز القوة في البيت، فبالنسبة للطفل غياب الأب معناه عدم وجود لهذه السلطة، فيبحث أن يكون هو هاته السلطة في البيت، ونلاحظ ذلك بالخصوص لدى المراهقين الذين يتربون في بيت لا أب فيه، مع أمهم فقط فعادة ما تعاني المرأة حتى الناجحة في تربية أبنائها، من صعوبات كبيرة أثناء هاته المرحلة في غياب الأب.

وقد يتولد العنف لدى الأطفال نتيجة تربية عنيفة من قبل الآباء، حيث يخلط هؤلاء بين التربية والترويض وبين السلطة والاستبداد فحسب «ديان دروري»[1]: «بالنسبة لهؤلاء الآباء، السلطة هي أمر جذري، فهي

---

(١) ديان دروري Diane Drory: أخصائية نفسية ومحللة نفسية مختصة في اختلالات الطفولة الأولى، صاحبة كتاب «le père pourquoi faire ?» و«Génération Cannabis، Paroles de jeunes، paroles d'experts».

تستعمل كترياق ضد الخوف من ألا يكون سيد الموقف، ذلك الذي يستطيع كل شيء، الذي لا يخطئ أبدا. هي أفكار وهمية يثقل حملها، لأن هذا الأب يعلم جيدا أنه ليس معصوما من الخطأ».

كما يمكن أن يكون هذا العنف اتجاه الوالدين نتيجة إهمالهم للطفل أو عنف كبير في تربيته، يحوله الابن إلى عنف مضاد من قبله، ولكنه قد يكون أيضا حصيلة إسقاط نرجسي للآباء على أطفالهم، بحيث أنهم يرون فيهم مرآة يريدونها أن تعكس رغباتهم، فيكونون متطلبين زيادة عن اللزوم، ويحاولون صناعة ابن كامل يعجب به كل من يراه، وأحيانا كثيرة تصل متطلباتهم حد التعسف وينسون أن لكل شخص طاقة، وأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، فمن العادي جدا أن يتمرد هذا الطفل بشكل أو بآخر، وعادة لا يجد أمامه سوى العنف ليعبر به عن رفضه لهذا السلوك من قبل والديه...

أما الوسائل التي يمكنها أن تحد من اضطراب الحركة لدى الطفل المصاب بمرض عضوي جيني وإضافة للأدوية هو الترابط الأسري والحلم والصبر على هذا الطفل المصاب وتقبل البلاء واحتسابه عند الله وعدم الصراخ على الطفل، فذلك سيزيد من خوفه الذي سيحوله إلى عنف كوسيلة للدفاع عن النفس...

أما في الحالات التي يكون فيها السلوك نتاج وضعية نفسية، فالأمر هنا وإن بدا صعبا ولكن يمكن السيطرة عليه، وذلك وكما قلنا من قبل بمحاولة إنهاء المسببات، فإن كان السبب هو خلافات الوالدين المتكررة أمام الطفل، فيمكنهما أن يحاولا حل خلافاتها بطريقة أكثر احتراما وبنقاش ودي لا يؤدي إلى جو من التوتر داخل الأسرة، مما سينقص من إحساس الطفل بعدم الاستقرار ويجعله يهدأ بدوره. وهذا العامل هو أشد الأسباب التي تجعل تربية الطفل فاشلة وتؤثر على النمو العادي له كما أن العيش تحت سقف واحد بدون مودة ولا رحمة وهما أساس الزواج، هو أحد العوامل التي تجعل الطفل يجنح نحو سلوك شاذ وعنيف، كما جاء في القران الكريم في سورة الروم: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾، وهذه الرحمة ليس فقط بين الأزواج بل هي رحمة للأبناء أيضا، فالزرع ينمو في بيئة سليمة، ويحصد عقيما في بيئة خالية من الحب والوفاق.

كذلك الانفصال بين الوالدين إن كان ولا بد وبات أمرا حتميا، فليكن بدون مشاكل نفسية للطرفين وبدون مشاكل خلافية أمام الأبناء، وسنفصل ذلك في جزء آخر.

كما أن مواجهة العنف بنظيره ليس حلا لمشكل الطفل السلوكي، وإنما عدم إساءة معاملته والتصرف بلين ورفق هي وسائل تربوية ناجحة تؤسس لطفل سليم وغير عنيف أبدا، فقد قال رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع الرفق من شيء إلا شانه».

أما في المدرسة فحلم المربي أيضا أمر واجب لكي يتجاوز الطفل صدمة الميلاد التي قلنا أنها ترافق الإنسان طوال حياتها وخاصة حينما ينتقل من وضع قديم إلى وضع جديد، والطفل حين ولوجه المدرسة فهو يدخل عالما جديدا، وقد لا يستطيع التركيز في البداية على ما يراه جديدا عليه، فينجم عن ذلك عدم القدرة على التركيز وحركية زائدة، فهو لم يعرف بعد حدوده داخل الفصل وهي بداية معرفته بحدوده داخل مجتمعه.

وإجمالا فإن الصبر على الطفل واحتماله والابتعاد عن العنف كوسيلة للتربية، الذي قد يحول سلوك الطفل إلى سلوك شاذ عنيف ناجم عن تحد وعناد، وتعويض ذلك بمحاولة تفهم أسباب ما يحصل للطفل سواء أكانت عضوية تحتاج لتدريب خاص ومتابعة إكلينيكية أو نفسية

أيضا، كل هذا يحتاج إلى صبر وحلم ومتابعة مع الابتعاد من الأفضل عن الأدوية، لأن المسببات نفسية وليست مرضية عضوية... وقد كان رسول الله ﷺ يقول «اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم» وذكر خمسا من سنن المرسلين وعد منها الحلم، فالحلم أساس الأشياء وزينتها، ولذلك فلنجعل من نبينا ورسولنا ﷺ، قدوة لنا، ونتعلم كيف نتعامل بحلم ورفق ولين، فأجر ذلك عند الله ولن يضيع أبدا، ففوق أننا سوف نساهم في تكوين جيل سليم ينهض بأمته فنحن سوف نؤجر على ذلك أيضا، ويكفي أن الحليم هو اسم من أسماء الله الحسنى، وقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾...

كما يجب أن يغير الآباء والمربون طريقة تعليمهم من الترهيب للترغيب والتحبيب، وذلك باقتراح جائزة مثلا إذا ما أنهى الطفل عمله كما يجب، مع الوفاء بالعهود طبعا، فكما سبق وذكرنا أن الطفل يتعلم بالقدوة ثم الحوار أكثر من أي شيء آخر. فلا ضير من عقد اتفاق مع هذا الطفل كثير الحركة مثل وعده بنيل مكافأة ما إن هو تعلم كيف يحسن سلوكه مثلا أمام الآخرين أو شكر غيره أو ساعدنا في مهام البيت

بدون مشقة، إلى غير ذلك من الأمور التي يمكن أن نجعلها محفزا تعلم الطفل السلوك الصحيح البعيد عن العنف، وتساعده على تثبيت تركيزه والانتباه بدون الضغط عليه، والأساس في كل ذلك أن نتعامل مع الطفل بطريقة عادية ونتفادى الغضب والعنف وهما أمران أكررهما كثيرا لأنهما أساس كل سلوك مرضي ونفسي...

كما أنه لا يجب تحقير الطفل إذا ما أخطأ، وكذلك يجب أن نبتعد عن أسلوب الأمر، وإنما نستعمل أسلوب الطلب بطريقة لينة ومدروسة.

رعاية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة

الإعاقة هي ابتلاء رباني وامتحان يجتازه كل من عايش هاته الحالة، ومن الصعب على الأهل تقبل حالة الإعاقة خاصة إذا أصيب بها أحد الأبناء وفي بعض الأحيان جلهم.

ولنقم بتعريف الإعاقة قبل أن نتحدث عن السلوكيات الواجب نهجها في التعامل مع هذه الحالات، وقبل ذلك فأنا وإن عنونت الفقرة بكيفية التعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة، إلا أن ذلك فقط ليكون مدخلا لما سيأتي وليس لأني أرى أن هاته الفئة لها احتياجات خاصة، فالله وحده يعلم باحتياجات كل شخص على حدة، وحينما ينقصنا شيء فيكون في ذلك خير ما، وغالبا ما يكون مع هذا النقص زيادة في أمر ما نتجاهله لأننا نتوقف عند النقصان والإعاقة، ولا نستثمر الأشياء التي يتمتع بها هذا الشخص، وحديثا بدأنا نتحدث عن إدماج هاته الفئة من الناس التي فهمنا أنه بإقصائها قد نقصي طرفا هاما في المجتمع.

وبالعودة للإعاقة، فهي في اللفظ واللغة تعني الحبس والتثبيط، بمعنى أن الإعاقة هي شيء يثبط عملا ما، أو يحبس الإنسان عن تصرف

ما، ولكن لا يعني أنه يجعله عاجزا مثلما كان يطلق قديما على من كانت لديه إعاقة ما، فقد لقب هؤلاء الإخوة من قبل بذوي العاهات والعاجزين، وتطورت المسميات إلى ذوي الاحتياجات الخاصة والمعاقين، وهناك لفظ أحبه شخصيا وهو الأسوياء وهو ما ينطبق على الفئة المصابة بإعاقة، إذ أذكر أن الله وحده يعلم الخير فيما يهبه أو يمنعه وبالتالي فهم أسوياء ما دام هذا قدرهم وما دام أنهم يتساوون مع الآخرين عند الله ولا يقاس إيمان الشخص بعاهة أو نقص صحة أو مال، وإنما يقاس بالتقوى وهذا من كرم الله عز وجل، إذ قال سبحانه وتعالى في سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾، ولم يقل سويكم صحة وأقدركم مالا إلى ما غير ذلك.. كما أنه جاء عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم.

إن المجتمع الذي لا يستفيد من هاته الفئة من الناس هو الذي يستحق لقب عاجز ومقعد...

أما تعريف الإعاقة علميا فهو: مرض عضوي يصيب الأطفال في سن الطفولة أو المراهقة وقد تنجم عن عامل وراثي أو تنجم عن حادث

مثلا، وقد يكون سببها بعض الفيروسات مثل حالة شلل الأطفال، والإعاقة تكون إما بدنية، بحيث تعيق عمل أحد الأطراف أو كلها، أو إعاقة ذهنية تتمثل في تخلف عقلي ولنقل تفكيري أو انخفاض مستوى الذكاء وعدم القدرة على التركيز مثل ما سبق ورأينا عند الأطفال الذين يعانون من فرط الحركة، وقد رأينا بعض حلول هاته المشاكل إن كانت فقط نفسية، ورأينا حالة المصابين بالتوحد. وفي كل أحوال الإعاقة، فإن العلاج الجسدي والترويض لا يكون كافيا ويحتاج إلى علاج نفسي أو حتى متابعة نفسية بطريقة سليمة من قبل الآباء والمدرسين، ولكن ليس الكل يتحمل نفقات العلاج النفسي عند مختص، وفي بعض الحالات أو في بعض الإعاقات يكون هذا العلاج نوعا من المعاملة الخاصة اتجاه الطفل لا يكون هو بحاجتها، بل يحتاج إلى أن يعامل معاملة طبيعية، وهذا طبعا في حالات الإعاقات التي يمكن معالجتها دون الحاجة إلى سلوك خاص.

أول ما يواجهه الطفل المعاق عضويا أي بطرف مبتور مثلا هو الخجل من مظهره الخارجي ولجوئه للانطواء والانعزال والتواري بعيدا عن الأعين.

لكي نساعد هذا الطفل علينا نحن أولا أن نتقبل كونه هكذا حتى لا نظهر المزيد من الشفقة أو إفراطا في الاهتمام، قد لا يفيده بل بالعكس يزيد من حدة التصاقه بالأهل وابتعاده عن المجتمع.

حينما يرزق الآباء عادة بطفل معاق، فأول ما يحسون به هو الإحباط وحالة نفسية سيئة تجعل الطفل حديث الولادة لا يستمتع بمرحلة المرآة كأي طفل عادي، ويتكون هناك حاجز بينه وبين علاقته بأمه الذي يكون في أمس الحاجة لها كأي طفل سوي...

يبدأ الآباء بالتفكير في معاناة لاحقة وسابقة لوقتها، فلا يمنحون الطفل حياة مستقرة، ولا يستطيع الطفل التأقلم مع جزع وخوف صدمة الميلاد، فهو منذ البداية يحس بمحيطه المشحون بالتوتر لأنه لا يرغب فيه. والسلوك حيال هذا الابتلاء يختلف من أسرة إلى أخرى، بحيث أن هناك من الآباء من يعتريهم الإحباط والألم، ويحاولون إخفاء ضيقهم بإخفاء طفلهم عن العيون ويتوجسون من اليوم الذي سيتمكن فيه من الخروج أمام الآخرين، ويفكرون في كيفية التعامل مع المجتمع وينسون أنه هو من يجب أن يعلموه كيف يتعامل مع هذا المجتمع، وهناك أسر تتقبل الوضع، ولكن ظاهريا فقط فتكون على حافة الانهيار عند أول

مشكل قد يحدث حتى لأبنائهم الآخرين الذين لا يعانون من أي مشكل، وهناك من يحاول أن يثبت أن طفله سليم، فيحمله ما لا طاقة له به ويحاول تعليمه بأساليب غير صحيحة أشياء أكبر من أن يطيقها ولا يلجؤون إلى أخصائي نفسي، ولا إلى أي علاج آخر خوفا من أن يكتشف الآخرون أن لديهم طفلاً يعاني من إعاقة ما، وهناك آخرون أكثر إيمانا يتقبلون الأمر ويسعون إلى تنمية مهارات طفلهم بأساليب علمية وبتعلم ما ينقص خبرتهم للتأقلم مع وضع جديد سوف يكون أمرا عاديا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

والأساس في تقبل الطفل على حالته هاته، هو مدى الترابط الأسري الذي يسود بين الوالدين عموما، بحيث أنهما يتقبلان الأمر ويتفاعلان معه بحب وود، ويتعاونان فيما بينهما ولا يلوم أحدهما الآخر على أمر إلهي مقدر قبل أن نأتي الدنيا.

يلجأ بعض الآباء إلى إهمال الطفل المعاق ولا يهتمون بتنمية مهاراته ولا بمساعدته على تجاوز إعاقته، وهناك من تشدد وسائل الحماية أكثر فأكثر فتجعل من الطفل معاقا أكثر من الأول، بحيث لا يستطيع أن يتجاوز إعاقته ليندمج في محيطه ومجتمعه، بل يعتمد دائما على الآخرين...

وبين هذا وذاك فقد أبان ديننا الحنيف عن وسائل التعامل مع هذه الفئة من المجتمع بدعوته أولا إلى عدم الإقصاء، وبإقراره أنه لا أحد أفضل من أحد إلا بالتقوى، وبمنحه الفرصة للعديد من هؤلاء لإثبات ذاتهم، كما أن علم النفس الحديث جاء بحلول تربوية وإدماجية مهمة أيضا.

ذكرنا أن أول وأهم شيء، هو تقبل الطفل كما هو من قبل الوالدين ليتمكنا من جعله يتقبل نفسه ويعيش حياة مستقرة، فمهم جدا أن يعلم الآباء أنه طفل أولا، ولديه إعاقة ثانيا، ولكنه يبقى طفلا مثل الباقين بخلاف بسيط وهو الإعاقة، نعم خلاف بسيط إذا تقبلنا الأمر نحن أولا، ولكن بمشكل كبير إن نحن لم نستطع تقبل الطفل كما هو... فعليهم إذن أن يفهموا أن هذا قدر الهي وأن يبحثوا عن الايجابيات في هذه الإعاقة ولا يتوقفوا فقط عند السلبيات لأنه حتى من لا يعاني أية إعاقة، لا يمكن أن يكون بدون نقائص وإنما الكمال لله وحده سبحانه وتعالى.

إذن فتقبل إرادة الله تعالى واستقبال الطفل كطفل أولا هي أهم مرحلة تمهد لما سيأتي بعدها والتي تعد مرحلة مرافقة الطفل في اقتحامه لمحيطه ومحاولة إدماجه كطفل عادي، ولكن دون أن نطلب منه ما لا

يستطيع القيام به، فلكل شخص طاقة معينة كيفما كان وضعه الصحي ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ومن المهم جدا أن نبدي احتراما لأبنائنا، وألا نتذمر عند أول مشكل يعترضنا وأن نتحلى بالحلم ولا نغضب من أبسط الأشياء، وألا نخاطبهم بخطاب يصيبهم باليأس أو بفقدان الثقة في النفس، كما أنه قد سبق وذكرنا في حالة الأطفال العنيفين وذوي الحركة المفرطة أنه لا يجب أن نتعامل مع عنفهم بعنف مضاد، بل من الضروري أن نأخذ الأمور بحنكة، وأن نتحمل انفعالاتهم الزائدة، فأحيانا تكون هاته الانفعالات فقط ردة فعل على عدم اهتمامنا بهم أو لعدم قدرتهم القيام بشيء ما مثل الآخرين، وهذا بالعكس أمر صحي وليس أمرا سيئا، فهذا يبين أنهم يسعون للقيام بأمور حياتية عادية، بمعنى آخر أنهم يفكرون بطريقة سليمة ويحاولون التأقلم مع مجتمعهم، وأنهم يعون عدم قدرتهم على ذلك، مما يدفعهم إلى إظهار ذلك بوسائل عنيفة في بعض المرات، وهنا علينا أن نرافق الطفل الذي يحاول هو أيضا مساعدة نفسه.

فعلينا أن نعامله على أنه طفل عادي مع محاولة جعله يتأقلم مع إعاقته، ولا ضير من مساعدته أيضا دون أن نسبب له إحراجا أمام الباقين، كما أن الحديث معه ومحاولة جعله يمرن حواسه في أوقات

معينة وخلال مدة زمنية تتصاعد مع اكتساب الطفل مهارات جديدة من أنسب الوسائل العلاجية والإدماجية، وقد كانت الأخصائية النفسانية «مونتسوري»[1] تقوم بذلك إذ أنها اعتبرت مشكل الإعاقة مشكلا تربويا أكثر منه مشكلا مرضيا، لذلك وضعت برنامجا خاصا تمكن هؤلاء الأطفال من الربط بين خبراتهم بالبيت والمدرسة، فهي بذلك تعطيهم فرصة التعبير عن رغباتهم والقيام بتعليم أنفسهم بأنفسهم، وقد سعت في ذلك إلى جعل الطفل يكتسب مهارات تدريبية لحواسه، فعن طريق سمك الورق مثلا وملمسه تدرب حاسة اللمس وبتمييز الأصوات، كتمييز صوت حيوان ما عن آخر استطاعت أن تنمي حاسة السمع، أما حاسة الذوق فقد كانت تنميها عن طريق التذوق فيحاول الطفل أن يفرق بين ما هو مالح ومسكر وحامض إلى غير ذلك...

ونذكر أنه بينما كانت ترى الحضارات المختلفة أن المعاق شخص منبوذ ولا يترجى منه أي أمل بل حتى العلماء والفلاسفة كان فيهم من

(١) ماريا منتسوري: ولدت في شيرفال قرب روما سنة ١٨٧٠ وتوفيت في هولندا سنة ١٩٥٢. اهتمت بمعالجة الأطفال من الناحية الجسدية والنفسية، هي أول سيده في ايطاليا كلفت برعاية مستوصف الطب النفسي في روما وعملت مع المعوقين عقليا.

يفكر بهذه الطريقة، ومن بينهم أرسطو[1] الذي كان يرى أن أصحاب الإعاقة السمعية لا يمكن تعليمهم، وكذلك الأمر بالنسبة لأفلاطون[2] الذي كان يطردهم من المدينة الفاضلة، لأنهم لا يؤدون واجبهم لنجاحها والقوانين أيضا اعتبرتهم فئة شاذة، ومن بينها القانون الانجليزي الذي كان يحرم المعاق من حقوقه وواجباته، جاء الإسلام ليهتم بهاته الفئة ووهب الرعاية والحماية لهم، بل إن الله تعالى عاتب نبيه محمد ﷺ في شخص ابن أم مكتوم[3] الذي جاءه وهو منشغل بدعوة كفار مكة إلى توحيد الله، فأدار وجهه والتفت إليهم، وبالرغم من أن ابن أم مكتوم، لم ير ما حدث إلا أن الله رأى ذلك فقال سبحانه وتعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ فأصبح الرسول عليه أفضل الصلوات والسلام كلما قابل هذا الأعمى يقول له: «أهلا بمن عاتبني فيه ربي». ونذكر أن هناك العديد من الأطفال الذين أصيبوا بعاهة أو إعاقة في صغرهم، ولكنهم أصبحوا من العلماء، بل أيضا من الرسل والأنبياء، فالإمام ابن سيرين العالم الورع: كان يعاني من ضعف

---

(١) أرسطو: -٣٢٢م-٣٨٤م- فيلسوف إغريقي، تتلمذ على يد أفلاطون وعلم الاسكندر الأكبر.
(٢) أفلاطون: ٣٤٧ م-٤٢٧م- فبلسوف يوناني.
(٣) عبدالله بن أم مكتوم: صحابي ضرير، نزلت فيه سورة عبس، وأم مكتوم هي: عاتكة بنت عبدالله.

شديد في السمع، والأمثلة كثيرة بل إن من الأنبياء أيضا من أصيبوا بإعاقة، مثل: يعقوب عليه السلام الذي ابيضت عيناه من الحزن، ورغم ذلك لم ينقص ذلك من علمه ولا من حكمته واستمر يترجى الشفاء من الله إلى أن شفي تماما، إذ جاء في سورة يوسف ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ وموسى عليه السلام الذي أصيب بعقدة في لسانه منعته من الكلام السليم إلى حين استجابة الله له حينما دعاه ليحلل عقدة من لسانه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ - وللإشارة فقط فان إعاقة الأنبياء ليست أبدية وإنما عارضة مهما طالت مدتها-

وكخلاصة، هناك بعض النصائح التي يمكن أن نستنتجها من خلال تعامل ديننا الحنيف مع هذه الفئة من الناس، ومن خلال ممارسات الأخصائيين النفسانيين أيضا:

فأولا على الوالدين أن يتقبلا طفلهما كما هو، وأن يتحليا بالصبر والحلم، وأن يكونا رفيقين معه، فقد قال الرسول ﷺ: «إن الله يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه» رواه مسلم، ومن هنا نرى أن الرفق اتجاه هؤلاء الأطفال أجره أكبر من أجر أي شيء آخر.

عدم ترقب أي سلوك سيء من قبله ما دام لم يحدث بعد، وبالعكس مراقبة سلوكياته الجيدة التي يمكن أن تكون مفتاحا لمساعدته ومساعدة الأهل أيضا.

ممارسة الحديث والحوار مع الطفل حتى في حالة عدم قدرته على الرد أو رده بشكل متلعثم، كما يجب أن يمنح هو أيضا الفرصة للرد أو للتعبير بالطريقة التي يقدر عليها دون أن نشدد عليه فنجعله يتوتر وينفعل وربما ينزوي وينطوي...

عدم التمييز بينه وبين باقي إخوته ممن لا يعانون إعاقة، وأيضا تعليم ذلك لهم بحيث لا يعاملونه بشكل متعال أو فيه مس لكرامته.

محاولة تنمية مهاراته الحسية والفكرية بإتباع طريقة «مونتسوري»، مثلا، فهي أسهل وسيلة والأكثر ايجابية.

الابتعاد عن التعليقات السلبية التي تحبط الطفل، وتجعله يبتعد عن أي سلوك خيفة أن يواجه بنفس الرد.

وأهم شيء أن تثقوا بقدراته لكي يستطيع هو أيضا أن يثق بنفسه لأنه أمر انعكاسي، فالأبوان وخاصة الأم، مرآة لابنها وسلوكها وأيضا

تعبيرات وجهها وحركاتها تنقل إليه انطباعها عنه فيتعامل معها ومع والده وإخوته أيضا وفق الانطباعات التي يتلقاها.

من الأنسب أن نجعل الطفل يختار في بعض الأمور، لكي يتعلم الاعتماد على النفس طبعا حسب قدراته.

الاهتمام الزائد أيضا يسيء لهذا الطفل، فمساعدته واجبة، ولكن التخفيف منها حينما نرى انه هو يريد أن يتعلم شيئا ما، طبعا ما لم يكن سينتج عن ذلك أي أذى، أيضا مسألة مهمة جدا.

حينما يرغب بالحديث، علينا أن ندعه يفعل ولا نرجئ ذلك إلى الوقت الذي يناسبنا نحن.

أيضا لا ضير من أن نكافئ هذا الطفل حينما يحرز نجاحا ما أو يغير وضعا خاطئا بآخر صحيح.

محاولة إدماج الطفل في اللعب مع إخوته وأيضا أصدقائه وأيضا داخل المحيط المجتمعي الذي نعيش فيه.

الأطفال بعد الانفصال

الطلاق أو الانفصال كلمتان لمعنى واحد، هو نهاية زواج وعوامل جديدة تعيشها الأسرة بعد أن كانت مترابطة، وإن كان هذا الأمر هو أبغض الحلال عند الله، ولا يلجأ له إلا بعد أن يستوفي الطرفان كل وسائل الصلح والترغيب من قبل الأهل والأقرباء والأصدقاء أيضا، ولأن الإسلام يعلم الضرر الذي ينجم عنه سواء لكلا الطرفين أو للعائلتين وبالأخص بالنسبة للأطفال.

هذا الطفل الذي كما رأينا سلفا، وجب أن نكون له جوا تربويا جيدا يجعله ينمو ويكبر بنفسية مستقيمة وسليمة تجعله إنسانا فاعلا في مجتمعه، هذا والأسرة مجتمعة ومترابطة فكيف إذن لو توجب على هذا الطفل أن يعيش مع أحد الأبوين، أو في تناوب بينهما بعد انفصالهما؟

حينما يتعذر الإبقاء على عقد الزواج فإن الحل الأنسب وإن كان الأبغض هو الطلاق، وأحيانا يكون أفضل للطفل من العيش في أسرة دائمة المشاكل وكثيرة الصراخ مما لن يوفر له بالتأكيد جوا تربويا سليما، ولكن يبقى أن هذا الطفل يتأثر بهذا الانفصال الذي قد يكون

مفاجئا له فيتحول من حضن أسرة بأب وأم إلى أسرة جديدة تكونها الأم أو الأب وربما مع شريكين جديدين.

والطلاق حينما يكون تحصيل حاصل، فليكن بما خصه الله به تفضيلا، أي بالإحسان ونسب المعروف للامساك، إذ قال سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾. الإحسان ينبني على المعروف، ولكن أيضا على استمرار المودة والابتعاد عن البغض والكراهية، وذلك لكي لا يتأذى كلا الطرفين وبالأخص حتى لا يشعر الأطفال بتغيير كبير يصيبهم بأزمات نفسية، كما أنه من الإحسان أن يؤدي الرجل مهر المرأة وكامل حقوقها وعليه أيضا رعاية الأطفال نفقة وحضورا.

الأسرة هي مجتمع مصغر بأفراد يكونونها، فإن صلحت صلح هذا المجتمع، وإن فسدت فسد، وعلينا أن نفهم أن الطفل هو فرد كامل يؤسس بدوره دعامة قوية في البيت، ويشكل دعامته المستقبلية، بل يمثل دعامة مجتمع الغد والمستقبل، وكأي شخص يكون هذا المجتمع المصغر، فإن الفرقة التي تنتج فيه والتغيير الذي يحدث بعد الانفصال يؤثران فيه بشكل كبير، وخاصة أنه ألف العيش بين والديه وفتح عينيه على عالم شكلاه هما الاثنين.

ولعل من قيم الإسلام النبيلة هو اهتمامه بتربية الأطفال بين والديهم رغم الانفصال حتى إنه حرم كتم المرأة لحملها بعد انفصالها، أولا لمحاولة إصلاح ذات البين قبل الوصول إلى قرار الطلاق النهائي، ولكن أيضا إدراكا أن التربية السليمة يجب أن تكون بين الوالدين، ولا يمكن الاستغناء عن أحدهما والاكتفاء بطرف واحد فقط حتى بعد الانفصال وقد قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

الطفل هو الضحية الأولى أثناء الطلاق أو الانفصال، فالأب والأم ينسيانه في خضم مشاكلهما ولا ينتبهان إلى أنه يعيش وإياهم هاته المراحل دون رغبته، فهو لم يختر أن يولد بهذا البيت، ولم يكن طرفا في قرار الانفصال، ومع هذا فهو يعيش نفس المشاعر، بل بزيادة أكبر، إذ أنه لا يعرف لم يحصل كل هذا، ولماذا تتحول عائلته التي أهدته الحب والحنان في الأول إلى عائلة لا تطيق بعضها البعض وتريد أن تحدث فرقة لم يهيأ لها هذا الطفل نفسيا.

ولنحاول فهم ما يحصل، فيمكننا أن نتحدث عن منظومة الثنائي الذي يشكله الأب والأم والذي يؤدي فيها كل منهما الدور المنوط بجنسه، فلكل منهما خصائصه الوراثية، ولكل منهما شخصيته الخاصة، بمزاياها وهفواتها ونقط ضعفها، والابن هو نتاج للقاء الاثنين منذ كان نطفة.

وغالبا ما نتحدث عن العلاقة الثنائية بين الطفل ووالدته، وهذا أمر ضروري في التربية، ولكن العلاقة الفعلية رغم ثنائيتها بين الأم وطفلها خلال السنتين الأولى من عمره، إلا أنها في الحقيقة علاقة ثلاثية، فوجود الأب ضروري جدا لنمو نفسي سليم للطفل...

فالطفل يبدأ بالإحساس بوالده وهو بعد جنينا داخل الرحم سواء من خلال مشاعر أمه أو من خلال ترجمة صوت الأب. خلال السنوات الأولى من عمر الطفل يكون التعايش بين الأم والطفل ذا أهمية قصوى وله خصوصية كبيرة، حيث يتطلب الطفل في هذه المرحلة حناناً وعطفاً وتواجد الأم، وفقدانها يعد بمثابة خطر جسيم يلحق بالطفل فيؤثر على نموه العقلي، وبالتالي الجسمي أيضا، وكلما كانت علاقة الأم بالوالد علاقة جيدة وآمنة كلما استطاعت أن تلعب دورها في هذه المرحلة كما يفترض بها وكما يجب وانطلاقا من السنة الثانية ولاسيما في سنته الثالثة

والرابعة يبدأ الطفل بالابتعاد نسبيا عن أمه والتوجه نحو محيطه، ولكي يحصل هذا من الضروري تواجد الأب.

الطفل يحمل على عاتقه ثقل هذا الانفصال، لأنه يعيش احتفاء بهذا الحلم المفقود فينكر موت الثنائي الذي يمثله أبواه، ويبقي في مخيلته على صورة اصطناعية للثنائي الفقيد.

لذلك نجد أنه بالنسبة للطفل طلاق الوالدين ليس بالأمر الهين أبدا مهما كان الاهتمام الذي يمكن أن يحظى به من قبل محيطه الأسري، فهو يعيش نزاعا داخليا صعبا، إذ تكون هاته التجربة قاسية وعنيفة عليه. وتبدي الدراسات النفسية أن الأطفال الذي يحضرون شجارات والديهم ونزاعاتهم يعيشون حالة الطلاق الذي يحصل بينهما بشكل نفسي واجتماعي أسهل من اللذين يصدمون بفكرة انفصال والديهم دون أن يلاحظوا أية بوادر نزاعية خارجية تدل على أنهم سوف يقدمون على فعل الطلاق والانفصال. وهنا لا نريد أن نقول أن النزاعات شيء صحي بالنسبة لأطفال الأزواج الذين يريدون الطلاق، ولكن نريد أن نثبت أن الطفل الذي ننساه في حساباتنا الراشدة هو أيضا مكون مهم في الأسرة، وعلى المنفصلين أن يدرجوا له خبر انفصالهم بطريقة

تمكنه من تفهم حدوث الانفصال، ولا نفاجئه بوقوعه دون أخذ رأيه أو حتى إعلامه.

وبصيغة أخرى، الأطفال الذين يعيشون حياة عائلية مضطربة بين والديهما والتي تكون عادة مليئة بالشتائم والنزاعات، ينظرون للطلاق على أنه نهاية حياة مأساوية وكريهة. أما بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط عائلات لا تعاني من مشاكل كبيرة، ينظرون للطلاق على أنه فاجعة حلت بهم وينغمسون في مشاكل نفسية واجتماعية خطيرة.

والأكثر عرضة لهاته المشاكل هم الأطفال الذي يرفضون الحزن القلق ويخفون همهم وإحساسهم بنوع من النفي وتبريرات كثيرة...

فالطفل يحس قبل الانفصال ببرودة العلاقة بين والديه، خاصة إذا هجر أحدهما البيت، وبقي برفقة الآخر، وبعد الطلاق يعيش نوعا من الوحشة والخوف في أن يفقد الطرف الذي بقي برفقته، أحيانا يبدأ بالتساؤل هل كان سببا في انفصال والديه؟ هل انفصلا لأنهما لا يحبانه؟ هل يرغبان فيه؟ ودون أن يعلم والديه، فهو يحمل مثلهما تماما عبء هذا الانفصال، ويحس بالخجل من قول أن والديه منفصلان لأنه يفهم أن

هذا الأمر هو الشاذ وليس القاعدة، قد يصبح الطفل انطوائيا حينما ينتقل إلى العيش مع أحد والديه، وخاصة مع تغيير البيت أيضا، أو اضطراره إلى العيش مع شريك جديد للأب أو الأم، وقد يلجأ للعنف والعدوانية كتعبير عن سخطه، كما أن هذا الطفل يعايش تناقضات كبيرة في سن صغيرة، فهو ينتشل من بين دفء عائلته لبرودة عائلة جديدة يكونها الأب أو الأم ويكون تحت رعاية شخص واحد بعد أن كان يعيش مع شخصين وعائلة مترابطة وهو في مثل هاته الحالة يعيش نوعا من الصراع الداخلي مبعثه مقارنته المستمرة بين عائلات رفاقه في المدرسة أو في الحي أو من الأقرباء وبين عائلته هو، فإما يقابل نقمته على هؤلاء الذين يعيشون حياة مستقرة بعنف وضرب وشتم، وإما ينزوي ويبتعد عنهم باعتبار أنه حالة خاصة، وأنه طرف أو سبب فيما حدث لوالديه ولعائلته.

وأحيانا نجد أطفالا لا يعانون من أي مشكل نفسي ظاهر، ويكبرون ليتحولوا إلى نساء ورجال فيما بعد ولكن هذا لا يعني أن التخوف الذي بداخلهم لم يحفر طريقه لديهم، فالعديد ممن تجاوزوا هاته المحنة صغارا وجدوها بانتظارهم كبارا، إما بفشل في الزواج أو تهرب منه بالمرة أو برفض لكل علاقة ارتباط...وكل هذا تبعات ما حصل وهم صغار...

غير أن هذا الطفل الذي لا يدرك الأسباب الفعلية التي ينجم عنها هذا الصراع، ومن ثمة الانفصال يستمر في تساؤلاته وفي قلقه واضطرابه السلوكي.

وبتفسير أعمق لما يحدث، فإن الطفل يفقد أثناء الطلاق الأمان العاطفي، وتظهر عليه علامة متلازمة التخلي لاسيما من قبل الطرف الذي يغادر البيت، كما يفقد العطف الذي كان يتقاسمه بشكل ثلاثي مع والديه، ولا يمكنه أن يحقق الهوية الرجالية أو النسائية أو الثنائية التي كان يشكلها من خلال ملاحظة والديه، ولا يكون بإمكانه إشباع رغبته بمنافسة والده في قلب أمه والعكس صحيح، كما أنه يتوه عن علامات الزمان والمكان التي كان يشكلها نموذج الثنائي المكون من والديه معا.

فيعيش الطفل حالة من الحنق والعار خوفا من انفضاح أمر طلاق والديه أمام الملأ، ويحاول أن يخفيه بشتى الطرق، كما يعيش حالة شعور بالذنب لتساؤله الدائم أكان سببا في الانفصال؟ كما أنه يشعر بالغضب اتجاه هذين الوالدين اللذان لم يقوما بدورهما في جعله يعيش حياة عادية، هذا الغضب الذي يعبر عنه بالعنف أو بشعور من عدم الرضا وأحيانا بالصمت والكآبة مع حنينه للفترة الماضية من

حياته، كما أن الطفل يمكن أن يظهر أعراضا مختلفة، مثل تغيير المزاج والسلوك، وردود فعل اكتئابية والهوس، وهو الشيء الذي يخفي وراءه اكتئابا مستقبليا. كما أنه يعاني عادة من الصعوبات الدراسية، سواء في المهارات التعليمية أو تكوين علاقات مع محيطه الدراسي، اضطرابات النوم، مثل الأرق والكوابيس وعوارض جسمية نفسية مثل الإحساس باضطرابات هضمية، فقدان الشهية أو بالعكس الشراهة، الإصابة بحساسية جلدية...

هذه الأعراض كلها تشكل نوعا من التواصل، فبعض أجزاء الجسم تماما كما الطفل تحاول أن توصل ما لم يستطع أن يعبر عنه بالكلام psychosomatisation.

ويصعب أن نفسر تأثير الانفصال على الطفل الرضيع، ولكن قد يعزز هذا الانفصال العلاقة بين الأم والطفل بشكل أكبر مما يعيق العلاقة الحسية بين الرضيع وبين الأب، ويتأقلم الطفل في هذه السن عادة مع الوضع بسبب غياب والده، ولكنه يكون أكثر إحساسا بالتقلبات المزاجية لوالديه مثل التوتر والكآبة وقد يعبر عن ذلك بكثرة حركته أو عنفه واكتساب النطق قد يساعده على التعبير عن ألمه. وعند الطفل

بين السنتين والثلاث سنوات، فإن حدوث الانفصال قد يؤثر سلبا على تعلمه مهارات النطق وتطوره الحركي أيضا.

الانفصال بعد هذه السنة عموما، يجعل الطفل يتوجه بثقته نحو الطرف الذي بقي معه، ويتعامل مع الطرف الآخر بحذر شديد أو تجاهل تام أو ينفر منه، ويكون وفيا لطرف دون الآخر. وفي سن متقدمة فإن الطفل يحاول أن يلعب أدوارا مختلفة أحيانا كثيرة يدفعه لها الآباء أنفسهم فإما يقوم بدور الوساطة بين والديه وإما بدور الرسول أو بدور الصديق المؤتمن من قبل الطرف الأقرب إليه، وغالبا ما يكره الطرف الآخر ويحتقره، لأنه يسمع من قبل طرف واحد ومرات يحس أنه رجل البيت، وأن عليه أن يحل محل الأب الغائب، وأحيانا يرى نفسه في دور المنقذ والمراقب...

وتقول «فرنسواز دولتو» إنه منذ بداية بوادر الطلاق يجب إعلام الطفل، فلتهذيب انفصالهم وجعله أكثر إنسانية، عليهم أن يتحدثوا مع الطفل بصدق، ويجب استعمال كلمات صحيحة في كل المراحل لأنه باستطاعة الأطفال أن يتأقلموا مع هذه الحقيقة الجديدة».

فإذا عرف الطفل ببعض دوافع هذا الانفصال، سيكف عن الشعور بالذنب والتساؤل إذا ما كان سببا في حدوثه، كذلك سيشعر بالاستقرار نسبيا، لأنه يعلم أن الانفصال بين والديه ليس انفصالا عنه أيضا، وإنما هناك استمرارية لعلاقتهما الثلاثية، وأنه سوف يحظى بنفس الحب ونفس الأهمية وأن الطلاق جاء نتيجة مشاكل لم تتح لهما الاستمرار مع بعضهما البعض، ولكنه لا يؤثر على علاقتهما به، وهذا من شأنه أن يشعر الطفل بالأمان، وسيحتفظ كل من الأب والأم بمكانتهما لدى الطفل دون أن تطغى وظيفة الأب أو الأم، وعلى الآباء اللذين لديهم أطفال أن يحاولوا الوصول إلى طرق تفاهم سلمية والتخلي عن رغباتهم النزاعية والإقلال من المشاكل وذلك لصالح أطفالهم ونموهم على وتيرة سليمة وصحية. وهنا يمكن أن يتدخل الوسطاء من الأقارب، فإن لم يستطيعوا إرجاع المياه إلى مجاريها، فعلى الأقل يمكنهم أن يجعلوا الانفصال أقل مأساوية وأقل عنفا وذلك لصالح الطفل ولصالح الجميع. وقد قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾.

وهذه بعض النصائح التي يمكن أن تساعد الأطفال في حال

أصبح الطلاق أمرا حتميا:

- لا يجب أن نحدث الأطفال بطريقة سلبية عن الطرف الآخر، سواء من قبل الأم أو الأب أو من قبل العائلة.

- في حالة الشعور بالغضب فمن الأفضل اللجوء إلى صديق للحديث عن مشاكل الانفصال دون أن تصب جام غضبك على طفلك أو تقحمه في متاهاتك المزاجية.

- لا تشعر طفلك بأنه غير وفي في حال كان يلاعب بفرح أحد الأبوين الغائب عن البيت أو يظهر غبطة لرؤيته وحضوره.

- حينما يلتقي الوالدان أمام طفلهما فعليهما إبداء الاحترام لبعضهما البعض فلقاء الطفل بوالديه ليس مناسبة لبدء الشجار من جديد.

- علينا أن نترك الطفل يتحدث حينما يرغب إلى الطرف الغائب عن البيت عبر الهاتف مثلا.

- لا تسأل طفلك عن الآخر إن لم يرغب بإعطائك أية تفاصيل عن الوقت الذي أمضاه معه، وخاصة لا تسأله عن حياة الآخر الشخصية.

- قبل أن تحدثوا الطفل عن موعد لقاء بأبيه مثلا أو مشاريع بالعطلة، على الأم أن تناقش الموضوع مع الأب لكي لا يشعر الطفل بالإحباط إن وعد بشيء ولم يحز عليه، وحتى لا يفقد ثقته فيما تقوله أمه أو أبيه.

- من الأفضل ألا نحكي عن مشاكل الطلاق أمام الأطفال، لتركهم يعيشون حياة مستقرة ونبعدهم ما أمكن عن التغيير السلبي في حياتهم.

- يجب ألا نظهر للطفل أننا حانقون، لأنه يفضل أن يذهب لأحد الأبوين دون الآخر أو لرغبته في رؤية احدهما أكثر، ولا نظهر طبعا أننا نحقد على الطرف الآخر، بل نعلم الطفل أن ما وقع بين الأبوين هو أمر ناجم عن اختلاف وجهات النظر، ولكنه ليس أمرا يجعلنا نحقد أو نمنعه من رؤية والده أو أمه.

المراهقة والمراهقون

تعد المراهقة فترة صعبة للغاية، ولكنها فترة الانتقال الطبيعي من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ، وهي تختلف من إنسان إلى آخر بحيث يمكن أن تكون معتدلة، ويمكن أن يكون الانتقال عنيفا. هي نوع من المطالبة بالاستقلالية لأن الطفل يترك مكانه إلى مراهق يزداد عنادا يوما عن يوم فنراه يتصرف في أكثر الأحيان ضد رغبات والديه ويقوم بمعارضتهما ويناقشهما بحدة، ويتسبب في مشاكل مرات كثيرة غير متوقعة، وتشبه المحللة النفسية «فرنسواز دولتو»، المراهق خلال هذه المرحلة العمرية بالمحارة التي تتعرض لتغييرات فتسقط صدفتها وتذهب لتتوارى خلف الصخور، حتى تصنع لنفسها قوقعة جديدة، والمراهق يكون حينها قابلًا للخدش بسهولة من قبل المؤثرات الخارجية، فيحاول تعويض النقص الدفاعي الذي يحس به بتغييرات سلوكية مفاجأة ومختلفة...

هذا التصرف الذي يعتبره الآباء خروجا عن طاعتهم وتجاوزا لسلطتهم أو إهانة لهم وعدم احترام، ما هو في واقع الحال سوى حاجة طبيعية في مثل هذا السن، ليكبر الطفل ويتحول إلى إنسان

بالغ وبالتالي الاستعداد لبناء حياته بنفسه، بأفكاره الخاصة وتخميناته الذاتية، فحب الذات من أقوى انفعالات هذه المرحلة، وببساطة أكثر إنه بحاجة إلى إثبات ذاته بواسطة اختياراته هو وليس اختيارات الكبار سواء والديه أو غيرهم.

خلال هذه الفترة والتي تلقب عادة من طرف الكبار بأزمة المراهقة، يلجأ بعض الآباء إلى مصاحبة أبنائهم في اجتياز هاته -الأزمة- ويردون على تمرد أبناءهم بعنف أكثر، فيؤدي تصرفهم هذا إلى إحساس أبنائهم المراهقين بالاختناق والحنق، وهناك نوع آخر من الآباء ممن يفضلون عدم الاكتراث لمثل هذه المرحلة -المهمة- وينتظرون مرورها دون أن يولوا لها أية أهمية.

ويبدو أن الأجدى هو أن نجمع بين هذين السلوكين، بحيث يمكننا مراقبة المراهق عن قرب دون أن نعطيه الانطباع بأننا نحاصره أو نلاحقه في كل مكان، وذلك بأن نترك له حيزا للاختيار، وأن نحترم قراراته مع إفهامه أنه مسئول عن تصرفاته واختياراته، وأيضا مسئول عن عواقبها، وبهذا نعطيه مساحة أكبر للإحساس بالمسؤولية. يمكن للآباء أن يصححوا أخطاء أبنائهم ويمكنهم أن يوجهوهم بطريقة غير مباشرة،

ودون اقتحام حياتهم بشكل واسع، وهناك طرق عديدة لذلك، من بينها الحوار مثلا، أو أن نحكي لهم قصة شخص آخر، بحيث يستقي منها المراهق العبرة ويفهم مغزاها ليطبقها على حياته هو دون أن نحسسه أنه المعني بالأمر فنعرضه للإحراج.

الأهم في هذه المرحلة أن يكون هناك إنصات بين الأطراف المعنية، وأن يتوفر أيضا حوار داخل العائلة ولكن أيضا داخل المؤسسات التعليمية، ولكي يكون ذلك يجب أن يكون لدى المربين والمدرسين إطلاع على منهجية تعليمية صحيحة، وذلك بأن تكون لهم مثلا دورات تدريبية في علم النفس التربوي، وفي أساليب الإنصات، وأيضا أن يقتدوا بالسيرة النبوية العطرة التي سبقت باقي العلوم لوضع مناهج التربية بقرون عدة، وأيضا أن تتوفر لهؤلاء آليات وجو معنوي ومادي مناسب ليتمكنوا من العطاء، وبصيغة أخرى يجب أن يشعر هؤلاء الأطراف بارتياح نفسي بحيث يكونون بعيدين عن كل اضطراب ليتمكنوا من التعامل بنجاح مع هاته الفئة من الشباب.

المراهقة أفق مجهول وشاسع وينصح وبشدة بالتواجد الفعلي في حياة الأبناء في مثل هذه السن الحرجة وتفادي المشاكل العائلية

أمامهم حيث أن التغييرات الفسيولوجية وأيضا النفسية ومنذ بداية سن المراهقة والتي تسمى أيضا بسن الحلم أو البلوغ، تبرز بقوة. فالطفل الصغير الذي ينحو نحو عالم الرجولة مثلا يبدأ بالإحساس بحاجته إلى تقليد الكبار والقيام بما يفعلونه هم، فيتعلم التدخين، ويكون هذا غالبا خفية، ويبدأ بالكذب، ولنقل وبكل بساطة تبدأ تصرفاته في التغيير دون أن يحس هو نفسه بذلك، وهذا التغيير يكون غالبا حسب ما يلاحظه الآباء والمربون إلى الأسوأ، وقد يتحول الطفل المراهق نحو الأنانية والاهتمام المتزايد بالذات، ويبدأ في معارضة كل شيء ولكن هاته الرغبة في المعارضة في حد ذاتها هي محاولة أخرى لإثبات الذات وفهم ما يدور حوله، وليست فقط نوعا من العناد أو عدم الرضوخ ومع مثل هاته التغيرات، يتوجب التواجد الفعلي كما سبق وذكرنا في حياة أطفالنا ويكون ذلك مناسبة لنعلم هذا الطفل الذي هو في طريقه إلى التحول نحو رجل بالغ أنه لكل شيء حدود، حتى الحرية التي تنتهي حينما تبدأ حرية الآخر، ويمكن للآباء والمربين أن يوصلوا هاته الرسالة إلى المراهق بطرق عديدة، ودون أن يلعبوا دور الشرير.

وكما قلنا إن المراهق يحس برغبته في أن يكون رجلا ويتشبه

بالرجال، وأنه علينا أن نخبره الحدود التي يجب أن يتوقف عندها وفي هذا الشأن، قد روي عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد في القتال وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني، وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني»، وقد جاء حينها عبدالله بن عمر النبي ﷺ ليجاهد في سبيل الله، ولكنه رده لصغر سنه وأفهمه برفقه المعهود أنه سيجاهد حينما يستطيع ذلك، وبالتالي فإنه رسم له حدا سيتمكن من تجاوزه فيما بعد، وكان ذلك فعلا، فقد شارك في غزوة الخندق وغزوة مؤتة واليرموك وأيضا شارك في فتح مصر.

وممن رُدّ يومئذ: سمرة بن جندب، ورافع بن خديج، وهما ابنا خمس عشرة، فقيل: يا رسول الله إن رافعاً رامٍ، فأجازه، وقيل: يا رسول الله إن سمرة يصرع رافعاً؛ فأجازه.

بمعنى أنه عليه أفضل الصلاة والسلام، قد أخذ بلغة الحوار بعد أن أشفق عليهما، وأراد ردهما ولكنه استمع لهما ولمن رافقهما فاقتنع وغير رأيه وهو ذات الحوار الذي وجب أن نتبناه مع المراهقين.

ومن هنا نتبين أيضا، أن سن الحلم هو السن الذي يحس فيه المراهق نفسيا بأنه قادر على أن يتحمل مسئولية اختياراته أي سن ١٥ أو حتى أقل بسنة أو سنتين، وليس سن البلوغ، المنصوص عليه في القانون الوضعي أي سن ١٨ أو العشرين.

وقد جاء في الحديث الشريف: «رُفِعَ القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم»، والحلم هو السن الذي يمكن فيه للمراهق أن يتحمل تبعات اختياراته والتي يجب على الآباء أن يؤازروا فيه أبناءهم أكثر، لينتقلوا من مرحلة الطفولة إلى بداية الرجولة، وذلك حسب الأشخاص وحسب البيئة التي نشئوا فيها...

وباختصار هذه المرحلة مهمة جدا، وصعبة أيضا بالنسبة للآباء كما بالنسبة للمراهقين أنفسهم، وقد تؤدي إلى عواقب كارثية إذا لم نحسن تدبيرها، كالإدمان على المخدرات مثلا والسجائر والفشل الدراسي أو حتى الهذر المدرسي، نعم فغالبا ما نسمع عن الهذر المدرسي بكثرة في مثل هاته المراحل العمرية. إنها حقا مرحلة صعبة للغاية، ولكن يمكن بالقليل من التفهم والحنكة وبإتباع تربية دينية سليمة، تدبيرها بفضل

مجهودات جميع الأطراف المتداخلة، وذلك بأن يستعد الآباء إلى فترة تحتاج إلى الإنصات الدائم لمشاكل أطفالهم ومناقشتها والتحاور معهم أيضا، وهذا من طرف الأساتذة والمربين أيضا، ولكن لا يجب أن ننسى مسئولية الدولة اتجاه هاته الفئة من الناس الذين يشكلون المستقبل القريب بحيث من الواجب أن تنجز لهم دورا للشباب، تتنوع أنشطتها بين ما هو ثقافي ورياضي وأنشطة أخرى متعددة، فالمراهق في مثل هاته السن يتوفر على طاقة هائلة ينبغي استخراجها، لينمو على أرضية نفسية سليمة، وهذه البيئة هي التي يمكن أن تجعل مجرد مراهق يتوجه إلى إبداع فني مثلا أو اللجوء إلى مقرأة قرآنية، أو يكون عرضة لأخطار عديدة كالإدمان على المخدرات والدعارة والشذوذ، أو حتى حالات اكتئاب وتغيير في المزاج قد يصل إلى هبوط انتحاري، فيحاول الطفل المراهق إنهاء حياته «Réactions dépressives»، وهذا ما يبرزه ارتفاع نسبة الانتحار بين الأشخاص الذين ينتمون لهاته الفئة العمرية، خصوصا في إطار التباس مفهوم التربية وابتعادها عن قواعدها الدينية...

وفي إطار دراسة أجريت في المملكة المغربية، نرى أن عدد دور الشباب قد ارتفع وأنها شاهدت تطورا ملحوظا، ولكن المؤسف أن هاته

الأنشطة الرياضية والفنية وغيرها ما زالت مكلفة بالنسبة للأسر المتوسطة الدخل والتي بالكاد يمكنها تحمل مصاريف الأبناء الدراسية التي تزداد كل مرة وبالتالي فالأندية والأنشطة التي تقام بها تعد بالنسبة لهم من الرفاهيات أو الكماليات التي لا يستطيعون اقتطاع ثمنها من أساسياتهم المعيشية، وبالتالي يتجه هذا المراهق بعد الحصص الدراسية إلى أزقة الحي التي تفتح ذراعيها له كأم ثانية، والمعروف أن المراهق يقضي وقتا أكبر بكثير خارج البيت من الذي يقضيه داخله في هاته المرحلة العمرية، وهنا نعود للتضامن الذي أوصى عليه ديننا الإسلام فمما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قوله عن الرسول ﷺ، «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة».

فإنشاء الجمعيات ودور الشباب من أجل مساعدة هؤلاء المراهقين على تجاوز التغيير بطريقة سليمة جسديا ونفسيا حتى على نطاق الحي ومن قبل ساكنيه، بات أمرا ظاهرا في العديد من الأحياء العربية وهو أمر محمود، ويدل على تضامن كبير، وليس هناك من تضامن أفضل من

السعي إلى إنشاء جيل صالح يعيد أمتنا الإسلامية إلى زهوها وعزتها ويجعلها تبقى دائما وأبدا خير أمة أخرجت للناس...

فإنشاء ورشات للرسم داخل المؤسسات التعليمية أو تحضير ندوات ثقافية، نحث فيها المراهقين على المشاركة والابتعاد عن دور المتلقي فقط كما في مناهجنا التعليمية التي ما زالت تعتمد في معظمها وخاصة في التعليم العمومي على التلقي أكثر، كما يمكن تشجيعهم كما سبق وذكرنا على المنافسات الرياضية الخ.. كلها أشياء بسيطة لكنها تمنع المراهق من أن يكون فريسة للشارع، وأن يوجه طاقته نحو شيء مفيد ومثمر.

إنشاء هاته الدور وهاته الورشات البسيطة، من شأنه أن يدعم النمو الطبيعي للمراهق، فلا يجب أن ننتظر أن يكون لدى المراهق مشاكل سلوكية لكي نهتم به، لأن معظم المراهقين كيفما كانت شخصياتهم معرضين في مثل هذا السن ليكونون مثله بحيث أنهم جميعا يكونون أكثر حساسية وهشاشة وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، إذن يجب إعطاء هذا الشاب الصغير الفرصة للحديث والمناقشة وتحقيق أهداف شخصية، لأنه يعد رجل الغد، وبالتالي فهو يشكل مستقبلنا جميعا،

وكما نعلم الوقاية خير من العلاج والوقاية اللازمة في مثل هذا العمر هو منح الفرصة للمراهق للتعبير عن نفسه سواء بالحوار أو بممارسة نشاطات ثقافية وفكرية ورياضية أيضا، ولا ضير أن نشجع أطفالنا على المشاركة السياسة أيضا، وننمي فيهم الحس الوطني والقومي ونجعلهم يتحدثون عن مشاكلهم بأنفسهم، ويسعون لإيجاد حلول لها بأنفسهم أيضا، ففي الكثير من الأحيان، ننسى أن الأطفال يجدون حلولا لمواقف يتعذر على الكبار إيجادها، وخاصة أن هؤلاء تعدوا مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج استعدادا لمرحلة البلوغ... ونرى هذا التحفيز على المشاركة في أمور الدولة من قبل رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام، الذي لم يكن يمنع مجلسه عن صغير ولا كبير فقد كان يمنح فرصة للحوار للمراهقين، وقد حاورهم في الجهاد فأباحهم بعد أن ردهم...

ولعل للمملكة المغربية تجربة رائدة في هذا التوجه، فقد كانت أول دولة عربية مغاربية تنشأ برلمانا للطفل، وذلك بعد مصادقة المغرب على الميثاق الدولي لحقوق الطفل سنة ١٩٩٣ ليتوج ذلك بخلق برلمان للطفل سنة ١٩٩٩، ثم تلته تونس بتأسيس مؤسسة برلمان الشباب... ولعل هاتين التجربتين الرائدتين تصبان في نفس ما ذكرناه عن ضرورة

إقحام المراهق في الحياة المجتمعية والمنظومة السياسية التي تقنن محيطه فلا يبقى مهمشا بعيدا عن كل مسؤولية...

وختاما يمكن أن أقول: إن هؤلاء الشباب يحتاجون أكثر لإعطائهم فرصة لتحقيق الذات وليبرزوا لنا قدراتهم، ولنكن على يقين أنه بإمكانهم أن يدهشونا بمواهبهم وطموحاتهم، ولذلك يجب أن نكون حاضرين في حياتهم في مثل هاته المرحلة بالذات، ولكن بالأفعال لا بالأحكام،

والأهم هو أن نترك لأبنائنا المجال داخل البيوت ليتحدثوا عما بداخلهم، ونعاملهم على أنهم كبار، بتواصلنا معهم ومراقبتهم، ولكن مع ترك مساحة من المسئولية الشخصية لهم، هكذا سوف يتعلم الأبناء أن يحدثوا آباءهم ويخبروهم بكل ما يقع معهم، دون أن يضطروا للكذب أو المراوغة، وأيضا القدوة مهمة في هاته السن كما في أي سن، ففي هذه المرحلة العمرية يعد الوالدين والمربين بمثابة مرآة لهم، لذلك عليهم أن يعطوا المثل الصالح، في الوفاء والشرف والأمانة والتفهم وغيرها....

إن مرحلة المراهقة هي عملية قطاف لما زرعه الوالدان من قيم وأخلاق وأساليب تنشئة في مرحلة الطفولة، فالوالدان اللذان عاملا

ابنهما بالرفق واللين ونهجا نهج السيرة النبوية العطرة فاحترما إنسانيته وخلت معاملتهم له من التدليل أو الحماية الزائدة ومن الطموح الزائد أو النقد والتوبيخ ومقارنته بالآخرين أو معاقبته بدنيا على كل صغيرة وكبيرة وعاملاه بحب وأشبعاه بالثقة وساعداه منذ الصغر على توكيد الذات، وقاما ببناء مفهوم ايجابي للذات عنده سوف يتجاوزان رفقة أبنائهم هاته المرحلة الحرجة بسهولة وبدون مشاق كثيرة...

كيف تقي طفلك من التحرش الجنسي؟

لأنها باتت ظاهرة متفشية رغم أنه ما يزال مسكوتاً عنها في دولنا العربية قمت بإضافة هذه الفقرة المهمة التي لم تكن تدخل في فهرسة الكتاب.

من الأمور التي تحدث في العالم بأسره دون استثناء بلداننا العربية والتي ما زال الحديث عنها يعد من المحرمات المسكوت عليها في مجتمعاتنا، ظاهرة التحرش الجنسي بالأطفال، وهي ظاهرة وإن كنا نسمع عنها لدى الغرب كثيرا، وتنقل محاكمات فاعليها عبر وسائل الإعلام، إلا أنها ظاهرة موجودة في مجتمعاتنا العربية أيضا، حتى وإن لم تتوفر إحصائيات دقيقة بعدد الأطفال الذين يتعرضون لها في بلداننا وهذا لعدة اعتبارات، منها الشعور بالخجل والتخوف من نظرة المجتمع للطفل وأهله، الخوف من الجاني أحيانا مما يؤدي لصمت الطفل أو الأسرة بأكملها في حالة كان الجاني من المقربين، وقد تكون القسوة التي يتخذها بعض الآباء كوسيلة لتربية أبنائهم سببا في صمت الطفل عما يتعرض له أيضا، خوفا من العقاب...

إلا أن بعض المختصين في العديد من الدول العربية بدؤوا ينحون نحو تعرية هذه الظاهرة المسكوت عنها، وتم إجراء عدة أبحاث في العديد من المجتمعات العربية، ففي إحدى الدول العربية مثلا كشفت دراسة أن واحداً من أربعة أطفال يتعرضون لمثل هذا الاعتداء وهو رقم مهول مقارنة مع حجم السكوت عن هذه الآفة.

وفي بداية الألفينات أكدت وحدة الطب الشرعي بالأردن أنه يتم التوصل بمعدل٤٣٧ إلى ٥٠٠ حالة سنويا في معظمها يكون الجاني من العائلة، وأظهرت دراسات أخرى في لبنان تم تسجيلها في جريدة «l'orient le jour» أن الجاني يكون في معظم الأحيان ذكرا، وفي المغرب ارتفع الإعلان عن مثل هذه الظواهر، خاصة بعد اكتشاف جثث طفلات صغيرات تم الاعتداء عليهن في مدينة وجدة منذ حوالي ثلاث سنوات، وجثث لأطفال آخرين في مدينة تارودانت الجنوبية، مما أوجب تأسيس جمعية «ما تقيش ولدي» أي لا تقرب طفلي، وهي جمعية تعنى بصيانة حقوق وكرامة الطفل وحمايته خاصة من الاعتداء الجنسي، ثم وأخيرا اتهام وزير التربية الوطنية الفرنسي الأسبق لوك فيري لوزير سابق باغتصاب أطفال في مدينة مراكش بالمغرب.

فكيف نحمي أطفالنا من التحرش الجنسي؟؟؟

أول ما يجب أن نعلمه هو أن غالبية الأطفال الذين يتعرضون للتحرش الجنسي يقع عمرهم بين السنة الرابعة والحادية عشر وفي أغلب الأحيان وحسب دراسة أخيرة، فإن قرابة ٨٠ في المائة من مستغلي الأطفال جنسيا أو المتحرشين بهم يكونون من بين الأشخاص الذين يعرفهم الطفل جيدا، لأنهم يكونون الأقدر على أن يجعلوه يثق بهم أكثر، كما أن نفس الدراسة تبين على أن الطفل لا يتعرض للاستغلال أو التحرش من قبل هذا الشخص مرة واحدة، وإنما تكرر المحاولات خاصة في بلداننا العربية حيث وكما أسلفنا، يوجد تكتم كبير على مثل هذه الحالات، وحيث لا توجد ثقافة الحوار المطلق بين الأطفال وآبائهم أو مدرسيهم، فضلا عن كون الطفل الذي يعرف المعتدي عليه غالبا كما قلنا يكون ملزما بالصمت، إما بالتهديد من قبل هذا الأخير بعدم فضح السر أو بسبب اقتناعه بعدم إفشاء الوضع، وربما يخفي الطفل ما يتعرض له خوفا من تلقي العقاب من قبل والديه أيضا...

ولكن كيف يمكننا أن نتعرف على طفل عنف جنسيا أو تعرض لتحرش؟

ليس بالضرورة أن تظهر علامات تعنيف على جسد الطفل لنعرف أنه تعرض لاعتداء أو تحرش ولكن في الحالات التي لا يوجد فيها شاهد على ما حدث يمكن أن نفهم من خلال بعض الملاحظات، فعادة ما يتغير سلوك الطفل، فبعد أن كان مرحا يلعب ويلهو كأي طفل في عمره، ينزح نحو الانطواء، وقد يبكي لأبسط الأسباب وربما يبدو عليه الخوف حينما يقترب منه شخص بعينه أو أحد الجنسين سواء أكان رجلا أم امرأة، ويصبح شديد الخوف، ويستيقظ ليلا بسبب مشاهدته لأحلام مزعجة، وربما يصرخ ليلا أو يتمتم بكلمات غير مفهومة، ويصاب بحمى متكررة لا يكون مصدرها فسيولوجيا، وقد يعاني من مشاكل اضطراب الهضم أو عدم الرغبة في تناول الطعام، يفقد ثقته في نفسه، وأحيانا يبدو وكأنه يخفي شيئا ما، وكأنه يشعر وأنه السبب في أمر ما ويحس بالذنب.. يرافق كل هذه الأعراض تدن واضح في مستواه الدراسي، كما أنه أحيانا يمكن للطفل أن يردد كثيرا عند رؤية قريب معين، انه لا يحبه... كأن يقول مثلا لا أحب ابن عمي، لا أريد أن يلعب معي أو أشياء كهذه، حينها لا يجب أن ننهره وننعته بقلة الأدب أو نرغمه على الصمت، بل يجب أن نفهم لم لا يحب هذا الشخص دون غيره، علينا أيضا الانتباه لما يرسمه

الأطفال، ففي العديد من رسوماتهم يتحدثون بما لا يمكنهم النطق به...

حينما نلاحظ بعض هذه الأشياء الجديدة على الطفل أو جلها، فإن لم يكن الأمر متعلقا بوضع صحي، فبالتأكيد هو أمر نفسي، وإذا استبعدنا مشاكل الأهل والانفصال والمشاكل الدراسية فلا يمكن استبعاد إمكانية تعرضه للتحرش الجنسي، أو حتى الاعتداء وحينما نكتشف أن ذلك حدث لا قدر الله، فإنه علينا أن نتدارك الأمر بسرعة، لأن الطفل الذي يعيش حياته مستغلا من قبل قريب أو صديق بالتأكيد لن يكون طفلا ثم راشدا سويا أبدا، فإما يصبح شاذا جنسيا للابتعاد عن الجنس الآخر ولتركيزه على أن مرافقة نفس جنسه هو الوضع السليم، وأكثر الأطفال المتعرضين لمثل هذه الاعتداءات ممن لم يعالجوا ولم يثبت ما حصل لهم وكبروا، لم يستطيعوا الزواج بل وابتعدوا عن العلاقات والارتباط كليا، وقد يؤدي ذلك إلى تعاطي المخدرات وحتى الانتحار في سن المراهقة، وبعضهم يصبح أيضا من المعتدين جنسيا، وكأنه ينتقم لنفسه من خلال آخرين لا ذنب لهم، إلى غير ذلك من السلوكيات الشاذة، وعليه إنه ما أن تظهر مثل العلامات السابقة على الطفل علينا أن نتوقف لمعالجة الأمر فورا...

لعل أهم الطرق لحماية الطفل، هي الوقاية وقد قال رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام «لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع»، ومن تأديب الابن تعليمه ما له وما عليه وهذا أيضا نوع من الوقاية، ولا يمكن أن نقي أطفالنا من هذا الخطر المحدق إلا إذا استطعنا أن نفهم بعض النقط للطفل لنجعله يحترس، كأن نخبره أن جسده خلقه الله له لكي يحميه من أي معتد وبالتالي فانه ليس عليه أن يترك أحدا يعتدي عليه، وكأن ننبهه أنه لا يجب أن يثق بكل شخص يطلب منه أن يرافقه لمكان ما، حتى وإن كان من عائلته، وإن حصل هذا فعليه أن يستأذن من والديه أولا، والأهم أن نركز على محاورته وتعويده على أن يحكي لنا تطورات يومه في المدرسة وبين أصدقائه يوميا، هذا كله بأسلوب صحيح وسليم، فلا يجب أن نبرز له أن هناك خطراً يحدق به في كل لحظة حتى لا نجعل منه طفلا منعزلا وانطوائيا متوجسا...

لكن وفي حال حدوث هذا الأمر المقيت لا قدر الله، فإن الطفل يمكنه أن يروي ما حدث له بطريقة أسهل لشخص قريب منه ويثق به، وإن لم يتحدث بسهولة وبسرعة، وسيتطلب الأمر حنكة من الأم أو الأب أو المربي بصفة عامة لكي يجعل الطفل يتحدث عما يشعر به أو يؤذيه،

والأفضل ألا تكون الأسئلة مباشرة، وإنما يمكن مثلا أن نسأل الطفل عن سبب تبوله من جديد في الفراش، أو نقول له أننا نشعر أن هناك شيئا ما يقلقه بالبيت أو المدرسة أو أننا نحس انه متضايق، ونسأل إن كان بإمكاننا أن نعرف لماذا لكي نساعده، يمكن أن نخبره أيضا أننا لاحظنا تغيرات على جسده ربما يكون هناك من يعامله بسوء وإذا ساعدنا في معرفة ما يحدث معه سوف نوقف هذه المعاملة السيئة ونحميه منه... والأهم أن يشعر أننا نريد حمايته وليس عقابه...

عادة ما يشعر الطفل حتى بعد أن يخبرنا بأنه الوحيد من تعرض للتحرش بين أقرانه ويتضايق من ذلك، فيطلب منا عدم إخبار الآخرين وأن يبقى ذلك سرا بيننا، حينها علينا أن نفهمه أن هذا يحدث مع الكثيرين، وأنه عليه ألا يخجل مما حصل، لأنه لم يكن سببا فيه وإنما هو مجرد ضحية، لأنه إن ظل يفكر في كيفية إخفاء ما حصل له، فسيظل قابعا تحت ثقل ما وقع له، وفي حال المراهقين الذين لا يتحدثون ويعتبرونه سرا قد يصل بهم الحد إلى الانتحار...

علينا أيضا أن نحرص على إبعاده عن أحداث مثل هذه ونحاول عدم تعرضه للخوف والرهبة من أن يتعرض لها من جديد، علينا أن نفهمه

أنه ليس في موقف الدفاع عن نفسه أو موقف يدلي فيه بشهادته، فهذه الأشياء يعاقب عليها القانون وبالتالي فهو يحميه من المعتدي وليس عليه أن يخاف منه مرة أخرى...

المتابعة النفسية مهمة جدا في حالة تعرض الطفل للاعتداء واكتشاف ذلك، فهو قد تعرض لصدمة عنيفة ومؤهل للتعرض لصدمات متوالية في حال عدم معالجته ومساعدته على تجاوز ما حصل معه، ففي بادئ الأمر، لا يستوعب الطفل ما يحصل معه ولا يعي تماما كل المستجدات والاعتداءات التي لحقت به، ويصعب عليه أن يعترف بما حصل معه خاصة، وأنه يظن وكما أسلفنا أنه الوحيد الذي تعرض لذلك وأن باقي الأطفال لم يتعرضوا للاعتداء، في مثل هذه الحالات من المفيد جدا الاستعانة بأخصائي نفسي، أو محلل نفسي وذلك لمساعدة الطفل على تجاوز الصدمة للحديث عما حدث، فالاعتراف بما حدث أول خطوة النجاة من الصدمة، وقد يمر زمن قبل حديث الطفل المعتدى عليه، وليس علينا أن نرغمه على الحديث في حينه، وإنما نحترم رغبته في الصمت، ونبقى على استعداد لسماعه ونحاول مساعدته على الكلام دون أن ندفع به إلى ذلك دفعا...

في حال كان المعتدي أحد أفراد الأسرة وخاصة أحد الوالدين

-وهذا يكون في الكثير من الأحيان للأسف-، يكون نفسيا من الصعب على الطفل الإقرار بما حدث معه، لأنه يرى فيهما مثالية الأبوين، ويريد أن يحتفظ رغم كل شيء بالصورة المثالية للمعتدي التي تعد مرجعية له، فهو ودون أن يطلب منه ذلك، يحاول أن يحمي المعتدى عليه، ولذلك يمتنع عن الحديث عما حصل معه، وللأسف كلما تأخر الطفل في الحديث، وكلما كانت ثقته بالمعتدي عليه كبيرة، كان الوضع النفسي متفاقماً، لذلك علينا أن نفهم كيف نتعامل معه لنجعله يدرك أن من يحميه يعتدي عليه ولا يستحق أن يتستر عليه...

من الأخطاء التي يجب أن نتجنبها تماما هو ألا نجعل من الطفل طفلا معتدى عليه أمام الجميع ونحرمه بالتالي من طفولته ولعبه ومرحه، بل علينا أن نتجاوز نحن ما حدث لكي يستطيع هو تجاوزه، فلا يجب أن ننسى أبدا أنه طفل قبل كل شيء، كما أنه علينا إذا ما تبين أن المعتدي أو المتحرش من العائلة، أن نسأل باقي أطفال العائلة إن كانوا قد تعرضوا لاعتداء مماثل وأيضا بطريقة لا تؤذيهم ولا تخيفهم...

وأخيرا لا ننسى أن الأطفال أحباب الله هم من يشكلون جيل المستقبل، علينا أن نتعلم كيف نرعاهم ونحميهم قبل كل شيء...

المراجع العربية

❖ القرآن الكريم

❖ صحيح البخاري «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه»

❖ صحيح مسلم «المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ»

❖ علم النفس في القرآن والسنة لعبدالرزاق عمار

❖ الأسس البيولوجية والنفسية للنشاط العقلي المعرفي لفتحي مصطفى الزيات

❖ المدخل إلى علم النفس لمحمود عبدالحليم منسي

❖ المعوق والمجتمع في الشريعة الإسلامية لسعدي أبو جيب

❖ الحديث النبوي وعلم النفس لمحمد عثمان نجاتي

المراجع الأجنبية

- Enfants: que leur dire quand on divorce? Discussion de Françoise .Dolto du 17 Octobre 1977
- Les parents martyrs de Jean-Pierre et Laetitia Chartier
- La cause des adolescents- Françoise Dolto
- Tout est langage - Françoise Dolto
- Le père pourquoi faire? - Diane Drory
- Savoir écouter un enfant. Du bébé à l'adolescent, Paris, Publibook, 2002- Françoise Peille
- Frères et sœurs, chacun cherche sa place, Paris, Hachette Pratique, 2005- Françoise Peille
- L'Interprétation des rêves, ouvrage de Sigmund Freud publié fin 1899
- L'amour Lacan de Jean Alouch

الفهـــرس

المؤلفة

بشرى شاكر إعلامية وباحثة ومترجمة مغربية

من مؤلفاتها:

- حمامة العرب تحلق بجناح واحد- منشور في بغداد ٢٠٠٩
- كتاب بلا حدود- منشور في الناصرية – العراق ٢٠١١
- كتاب الناصرية بعيون غربية- ترجمة من الانجليزية والفرنسية إلى العربية
- النسخة الفرنسية لرواية «الساحر» للكاتب اليمني عبدالرحمن المولد

مؤلفات في طور النشر

- حكايا وعبر
- المرأة في الحضارة الإسلامية
- Divorce, fin d'un mariage mais pas la fin du monde

قائمة إصدارات

مجلة الوعي الإسلامي

١- القدس في القلب والذاكرة.

٢- حقوق الإنسان في الإسلام.

٣- النقد الذاتي.. رؤية نقدية إسلامية لواقع الصحوة الإسلامية.

٤- الحوار مع الآخر.. المنطلقات والضوابط.

٥- المجموعة القصصية الأولى للأطفال.

٦- المرأة المعاصرة بين الواقع والطموح.

٧- الحج.. ولادة جديدة.

٨- الفنون الإسلامية... تنوع حضاري فريد.

٩- لا إنكار في مسائل الاجتهاد.

١٠- المجموعة الشعرية الأولى للأطفال.

١١- التجديد في التفسير.. نظرة في المفهوم والضوابط.

١٢- مقالات الشيخ محمد الغزالي في مجلة الوعي الإسلامي.

١٣- مقالات الشيخ عبدالعزيز بن باز في مجلة الوعي الإسلامي.

١٤- رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام.

١٥- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام الخضر حسين.

١٦- علماء وأعلام كتبوا في الوعي الإسلامي.

١٧- براعم الإيمان.. نموذج رائد لصحافة الأطفال الإسلامية..

١٨- الاختلاف الأصولي في الترجيح بكثرة الأدلة والرواة وأثره.

١٩- الإعلام بمن زار الكويت من العلماء والأعلام.

٢٠- الحوالة.

٢١- التحقيق في مسائل أصول الفقه التي اختلف النقل فيها عن الإمام مالك بن أنس.

٢٢- الأصول الاجتهادية التي يبنى عليها المذهب المالكي.

٢٣- الاجتهاد بالرأي في عصر الخلافة الراشدة.

٢٤- التوفيق والسداد في مسألة التصويب والتخطئة في الاجتهاد.

٢٥- فقه المريض في الصيام.

٢٦- القسمة.

٢٧- أصول الفقه عند الصحابة- معالم في المنهج.

٢٨- السنن المتنوعة الواردة في موضع واحد في أحاديث العبادات.

٢٩- لطائف الأدب في استهلال الخطب.

٣٠- نظرات في أصول البيوع الممنوعة.

٣١- الإعلاء الإسلامي للعقل البشري (دراسة في الفلسفات والتيارات الإلحادية المعاصرة).

٣٢- ديوان شعراء مجلة الوعي الإسلامي.

٣٣- ديوان خطب ابن نباتة.

٣٤- الإظهار في مقام الإضمار.

٣٥- مسألة تكرار النزول في القرآن الكريم.

٣٦- الحافظ أبوالحجاج يوسف المزي، وجهوده في كتابه «تهذيب الكمال».

٣٧- في رحاب آل البيت النبوي.

٣٨- الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية.

٣٩- منهاج الطالب في المقارنة بين المذاهب.

٤٠- معجم القواعد والضوابط الفقهية.

٤١- كيف تغدو فصيحًا.

٤٢- التنزيل (الوصية الواجبة في الفقه الإسلامي).

٤٣- الفروق الدلالية لألفاظ التكرار في القرآن الكريم.

٤٤- تبصرة القاصد على منظومة القواعد.

٤٥- حقوق المطلقة في الشريعة الإسلامية.

٤٦- الضمان في الحقوق المعنوية والتحفيز التجاري.

٤٨- المذهب عند الحنفية- المالكية- الشافعية- الحنابلة.

٤٩- أجواء رمضانية.

٥٠- المنهج التعليلي بالقواعد الفقهية عند الشافعية.

٥١- نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده.

٥٢- دراسات وأبحاث علمية.

٥٣- ابن رجب الحنبلي وأثره في الفقه.

٥٤- التقصي لما في الموطأ من حديث النبيّ.

٥٥- المجموعة القصصية الثانية للأطفال.

٥٦- كراسة لوِّن لبراعم الإيمان.

٥٧- موسوعة رمضان.

٥٨- جهد المقلّ.

٥٩- العذاق الحوانى علي نظم رسالة القيرواني.

٦٠- قواعد الإملاء.

٦١- العربية والتراث.

٦٢- النسمات الندية من الشمائل المحمدية.

٦٣- اهتمامات تربوية.

٦٤- أثر الاحتساب في مكافحة الإهاب.

٦٥- القرائن وأثرها في علم الحديث.

٦٦- جهود علماء الحديث في توثيق النصوص وضبطها.

٦٧- سيرة حميدة ومنهج مبارك (الدكتور محمد سليمان الأشقر).

٦٨- أبحاث مؤتمر الصحافة الإسلامية الأول.

٦٩- نظام الوقف والاستدلال عليه.

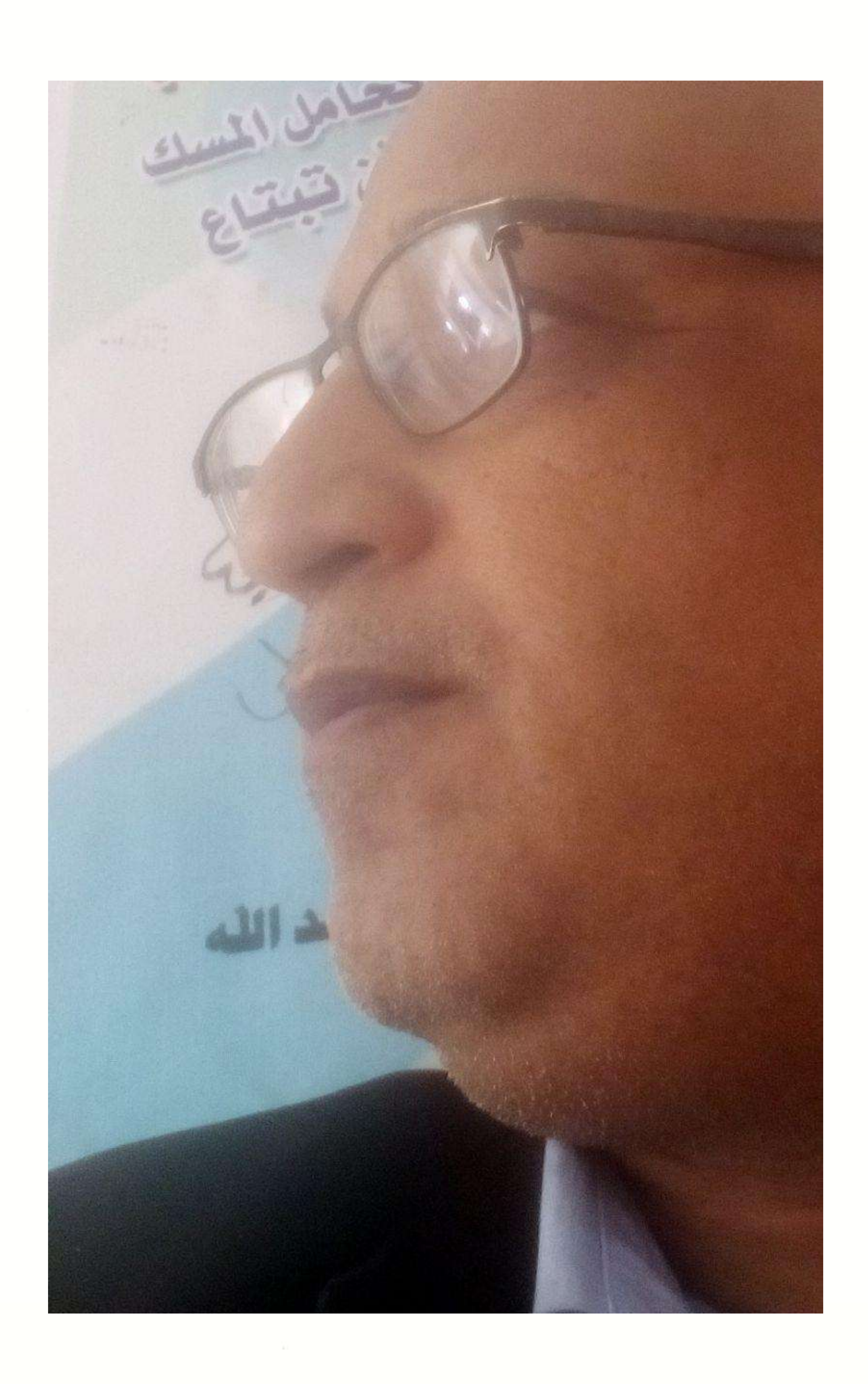
٧٠- من أمالي العلامة أبي فهر محمود محمد شاكر على كتاب الأصمعيات للأصمعي.

٧١-من أمالي العلامة أبي فهر محمود محمد شاكر على كتاب الكامل للمبرد.

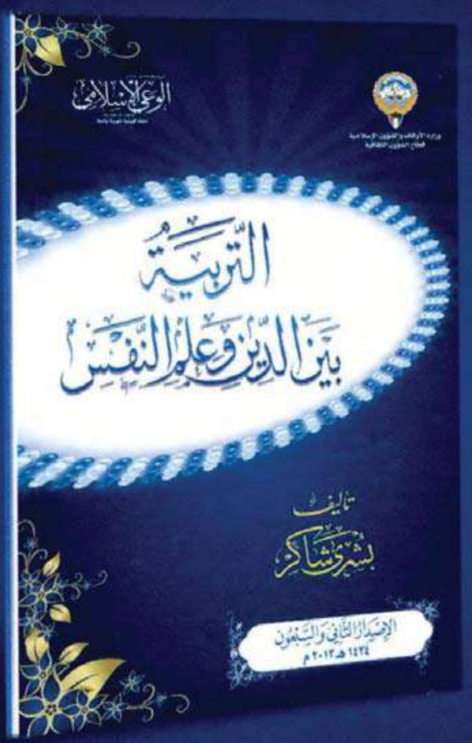
٧٢- الترجيح بين الأقيسة المتعارضة.

٧٣- التلفيق وموقف الأصوليين منه.

٧٤- التربية بين الدين وعلم النفس.


المسك
تبتاع
الله




الوعي الإسلامي
التربية
بين الدين وعلم النفس
تأليف
بشرى شاكر
الإصدار الثاني والسبعون
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

